"إذا قتلني... فكل ما أتمناه أن يفعل ذلك بسرعة"

مكتبة 524

# فندق الغرباء

ديميتري فيرهولست

ترجمة: ريم داوود

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

مكتبة 524

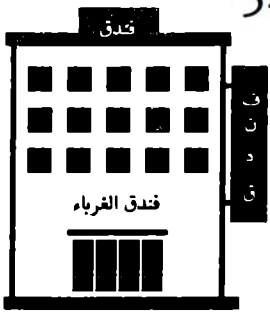


# فندق الغرباء

t.me/t_pdf

فندق الغرباء
تأليف: ديميتري فيرهولست

ترجمة: ريم داوود
تحرير: هدى فضل
مراجعة لغوية: محمد حامد

الطبعة الأولى: 2017
رقم الإيداع: 2017/11265
الترقيم الدولي: 9789773193454

الغلاف: عصام أمين

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60شارع القصرالعيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

مكتبة
t.me/t_pdf
٢٠١٩ ١١ ٣

**Problemski Hotel © 2003 by Dimitri Verhulst**
**Originally Published by Uitgeverij Atlas Contact, Amesterdam**

Flemish Literature Fund

**Translation of this book is funded by the Flemish Literature Fund (Vlaams Fonds Voor de Letteren – www.flemishliterature.be)**

ديميتري فيرهولست

# فندق الغرباء

رواية من بلجيكا

مكتبة | 524

ترجمة: ريم داوود.

العربي للنشر والتوزيع

**بطاقة فهرسة**

فيرهولست، ديميتري

فندق الغرباء: رواية من الأدب البلجيكي/ تأليف: ديميتري فيرهولست، ترجمة: ريم داوود.

ط1- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2017،

ص؛ سم.

تدمك 9789773193454

1- القصص البلجيكية

أ- داوود، ريم (مترجم)

ب- العنوان 839.313

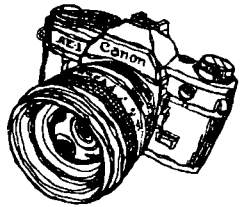


# الجزء الأول

## "بابيول ماسلي: مُصوِّر"

انضم إلى مكتبة .. اضغط اللينك t.me/t_pdf

**المكان: مدينة "هرجيسا"، الصومال، 1984**

قلت للطفل الجائع الذي أحاول تصويره:

- تصرف كأنني لست موجودًا.

كنتُ قلقًا ومتوترًا، وتمنيت لو أن معي شيئًا أتناوله، حتى تتوقف يداي عن الارتجاف. لسببٍ ما، أحسستُ أن هذه اللقطة ستكون انطلاقتي

الكبرى.. نجاحي المهني متوقفٌ عليها.. هي التي سترفع من قيمتي، وستمنحني فرصة الرد على اتصالات رئيس قسم التصوير في وكالة "رويترز" ببرود ولا مبالاة وأنا أطلب منه أن يتصلَ بي لاحقًا، لأنني مشغول ووقتي مزدحم.

حدس المصوِّر يساعده على تمييز اللقطة التي ستحقق له نجاحًا مدويًا.. "هنري كارتييه بريسن" شعر بذلك حتمًا حين صوَّرت عدسته الصبي الصغير الذي يحمل بيديه زجاجتي نبيذ في شارع "موفتار" بباريس.. "إليوت إيرويت" عرف الإحساس نفسه حين أخرج الرجل الأسود لسانه للكاميرا، وكذلك "ألفريد ستيجليتز"، حين لمح تلك الشابة الفاتنة ذات الأنامل فائقة الجمال، وهي تزرر معطفها، فالتقط عمله الشهير في اللحظة المناسبة. "إدوارد ستيكن" بدوره، كان مدركًا للأمر، فقد لازمه هذا الشعور في كل مرة صوّر فيها النجمة "جريتا جاربو".

في هذه اللحظة، أنا مثلهم جميعًا.. أعرف جيدًا أن هذا الطفل الذي يتضور جوعًا سيكون أعظم أعمالي.

في الليالي الطويلة، يحاول الناس القضاء على الضجر المصاحب لها بترديد عبارات جوفاء لا معنى لها، مثل أن الصورة الناجحة هي وليدة الحظ

والصدفة البحتة، فقط! ثم يبدأ كل منهم في استعراض معلوماته عن الصورة الوحيدة التي يعرفونها جميعـًا.. الفتاة العارية التي تجري محترقة، في ذعر وأسى. اللعنة عليهم جميعـًا! يتبارون لساعات في التنظير والتفلسف، ويؤكدون أنه لولا وجود المصوِّر في المكان، في تلك الدقيقة تحديدًا، وقنابل النابالم تتساقط على رؤوس الناس، لَمَا تمكن من تسجيل تلك اللحظة الفارقة؛ ثم يؤكدون مرة أخرى أن المسألة لا تعدو كونها صدفة!

ما الذي ينبغي عليّ قوله إذًا؟ إن الصدفة وضعت هذا الطفل الموشك على الموت جوعـًا في طريقي؟

الأمر ليس كذلك، بالطبع. ماذا عن موهبتي؟

الموهبة هي التي جعلت "روبرت كابا" يلتقط تلك الصورة التي ينفجر فيها مخ الجندي؛ لا الحظ ولا الصدفة.

وما الحظ، أساسًا؟ يقول متسلقو الجبال ـ الذين شهدوا انهيارات ثلجية مخيفة بالقرب منهم ـ إن الحظ في جوهره ليس سوى مهارة تتقنها مع الوقت؛ وأنا بدوري أؤمن بذلك.

في الواقع، شكّـل هذا الصغير الموشك على الموت، نقطة تحوُّل دراميّة وفنية في حياتي، فقد حوّلني أخيرًا إلى التقاط الصور الملوَّنة.

كطالبٍ، تدربت على التصوير باللونين الأبيض والأسود؛ أمَّا الأفلام الملونة داخل الكاميرات، فكانت حكرًا على صور الإجازات وحفلات الزفاف، وإن فضَّل البعض ـ في ذلك الوقت ـ إضافة لمسات كلاسيكية على لقطات العرائس، عن طريق صبغها بدرجات اللون البني، لتبدو عتيقة وتاريخية. الحقيقة أن النتيجة، في معظم الأوقات، كانت عجيبة ومضحكة.

لطالما تساءلت إن كانت لهذه الصور أي قيمة عقب الطلاق، لكن هذا الأمر خارج نطاق موضوعنا الآن. على أي حال، في اعتقادي، الألوان أمرٌ مبتذل. تركَّز اهتمامي في أعمالي على التكوين والتركيب. أهم شيء في الصورة هو الضوء أو النور. الكتاب المقدّس لا يقول: "ليكن لون، فكان ألوان". كلا، بل "وقال الله ليكن نور، فكان نور". الإضاءة الجيدة هي التي تمنح الألوان قيمتها. ماذا أيضًا؟ لا يمكنني الجزم بشيء آخر، فالحقيقة أنني لم أقرأ في الإنجيل سوى هذه الآية. عمومًا، لم يتخرج أحد من جيلي لأنه استخدم اللقطات الملونة، بل كانت أعمالنا جميعًا، في مشروعات التخرج، بالأبيض والأسود.

في تلك اللحظة، تملكتني رغبة قوية في وضع فيلم ملون في الكاميرا الـ"كانون".

لا أستخدم أفلامًا ملونة عادّة، لكنني في ذلك اليوم كنت أضع واحدًا في الحقيبة الخاصة بالكاميرا. فيلمٌ واحد، أربع وعشرون صورة. أربع وعشرون فرصة، لخلق شخصية شهيرة عالميًا من هذا الطفل البائس. أربعة وعشرون دربًا ستأخذني إلى الصفحات الأولى للصحف الدولية المختلفة. استطعت أن ألمح الإعلان الضخم المعلَّق أمام قاعات متاحف التصوير الرئيسية، مستقبلًا: "التطور الفني في أعمال بايبول ماسلي".

كان الصغير محاطًا بتكوين مثالي، يخدم فكرة الصورة، فقد زحف بقواه الخائرة تجاه مكبّ نفايات، واستلقى هناك، بوهن بالغ، وسط أكوام قمامة تخلو من أي طعام، وراح يمص إبهامه، وينظر أمامه بعينين شاردتين، في استسلام. لو أنني أزلت الانعكاس الساقط على عينيه المظلمتين، لاستطعتُ رؤية الموت ماثلًا في أعماقهما. كان قد تقيَّأ شيئًا للتوّ، التصق ببطنه. انبعثت منه رائحة كريهة جدًا. لن يصمد الصبي أكثر من ثلاث أو أربع ساعات على الأكثر. موقع الشمس ونورها، عقب خمس ساعات، سيكون مثاليًا للغاية، لكنني لا أستطيع المجازفة بالانتظار حتى ذلك الوقت. سيموت الصغير، وليس في صورة طفل ميت أي شيء متميز. عليّ أن أنتهز الفرصة، لأسجل بالكاميرا لحظات احتضاره.

الحيوانات والأطفال هما الفئتان الأكثر صعوبة في التصوير. اسألوا أي مخرج في هوليوود. سيؤكد لكم الأمر؛ ذلك ما دفعني لتوجيه الولد:

- تصرّف كأنني غير موجود.. على نحو تلقائي وطبيعي.

ليس في كلامي شيء غريب، فهو معتاد - أكثر من نجمات السينما - على عدسات المصورين. معتادٌ أكثر من "مارلينْ مونرو" شخصيًا! لا أستبعد أن يرسم على شفتيه ابتسامة عريضة في أي لحظة، من يدري؟! يتصرف الناس على نحو غير متوقع في بعض الأحيان. التافهات اللاتي ينجحن في الظهور على شاشة التليفزيون مرة أو اثنتين على الأكثر، يمضين بقية حياتهن في توزيع ابتسامات مصطنعة أمام أي عدسة تقابلهن، حتى لو كانت كاميرات المراقبة في محلات الملابس! الأمران متشابهان جدًا. على أي حال، أنا متيقن من أن هذا الصبي وقف أمام عدسات المصورين مائة مرة على الأقل، وإن أغلبهم مستقلون، وإنهم ما إن يلتقطوا له عددًا من الصور، حتى يسارعوا بركوب الطائرات، عائدين إلى بلدانهم وإلى أعمالهم المعتادة.. حفلات الزفاف، والمئويات، وحوادث السير المريعة. أتفهَّم الأمر بالطبع، فلديهم التزامات مالية، وأقساط وأبناء.

لكنني لا أتبع أساليبهم في عملي على الإطلاق. لا أتعجل التقاط الصور إطلاقًا، بل أمنحها الوقت الكافي لتتكون على الشكل الأمثل.

لا بد أن الطفل يشعر بارتياح بالغ، لإدراكه أن هذه هي جلسة التصوير الأخيرة في حياته.

التقطتُ العديد من الصور خلال سنوات عملي. أغلبها لصالح المجلات الأسبوعية، التي منحتني مبالغ مالية معقولة مكنتني من دفع إيجار مسكني بانتظام في بداية احترافي. إنها مهنة كريهة. صدقوني. إن اضطررتَ مثلًا لتصوير مصمم أزياء، فسوف يتدخل في كافة التفاصيل، معتقدًا أنه يعرف الوضع المثالي للتصوير أكثر منك. يجلس الواحد منهم أمامك بوجه متجهِّم بلحية كثيفة، ثم يضع رأسه الأصلع بين بيديه ليظهر جميع الخواتم التي تزين الأصابع العشر. أمَّا مع نجمات الغناء الصاعدات، فتستغرق معظم وقت الجلسة في محاولة إقناعهن بألا يخلعن المزيد من ثيابهن. أسوأ الفئات على الإطلاق هم الكـُتّاب. لا يسكنون إلا البيوت المعتمة، فتجد نفسك منهمكًا في جرّ قطع الأثاث المناسبة إلى الخارج، ليجلسوا عليها في إضاءة أفضل؛ ومع ذلك، تضطر لاستخدام فلاش قوي في نهاية الأمر. عليك أن تتملقهم وتتودد إليهم لتحصل على

نتيجة جيدة، لكنهم يجلسون بطريقة متخشبة، متحفظة، كي لا يسفهوا من هيبتهم وعقولهم العظيمة نادرة الوجود!

أمتلك إذًا خبرة طويلة في عالم التصوير، لكن ما أشعرني بالتوتر البالغ هو إدراكي أن لديّ أربعًا وعشرين فرصة فقط لتسجيل هذه اللحظات المهمة. الحقيقة أنني أستخدم أحيانًا أكثر من خمسة عشر فيلمًا لالتقاط صور تافهة. الأمر مربك. لم يعد الوضع كذلك هذه الأيام بالطبع مع كل التقدم الذي تحقق في عالم التصوير، لكننا نتكلم عن عام 1984 حين كان علينا تحميض الأفلام وإظهار الصور في غرف مظلمة تجلب الكآبة للروح. عانينا الكثير في عملنا وقتها.

دخَّنْتُ سيجارة، لكنها لم تهدئ من انفعالي. ظلت يداي ترتعشان.

عليّ أن أستبخدم حامل الكاميرا، بأرجله الثلاثية الطويلة.

أتوسل للصبي أن يظل على قيد الحياة لنصف ساعة إضافية. أرجوك. كيف أجعله يفهم ما أطلبه منه؟ عليه أن يتعاون معي ويطيعني من أجل مصلحته. صحيح أنني لا أملك إنقاذ حياته. من السذاجة أن يعتقد أحد ذلك، لكن صورته ستبهر العالم الغربي، وسوف تزين إحدى الـ"نتائج" الحائطية التي تباع مطلع كل عام جديد.. تلك التي تصدرها منظمات

الإغاثة غير الحكومية المحبة للسلام. سوف يستخدمون صورته لتسليط الضوء على الواقع المأساوي في هذا الجزء من العالم، ومحاولة إنقاذ غيره ممن يعيشون ظروفًا مشابهة.. إلخ.. إلخ..

على كل حال، تتعدد أسباب الموت؛ هناك من يفارق الحياة نتيجة المجاعات، وهناك من يغادرها لتناوله قطعة دجاج ملوثة بالـ"سالمونيلا". ما الفرق؟

أنا، "بايبول ماسلي"، يمكنني أن أخلق من وجه ذلك الطفل أيقونة؛ أن أجعله جزءًا من الذاكرة الجمعية. قد يحولون صورته إلى طابع بريدي يجوب العالم.

عليه أن يكون ممتنًا لي. هل وجهي أنا هو الذي سيزيّن إصدارات هيئات الإغاثة، أم وجهه هو؟!

أتأمل المنظر عبر عدسة الكاميرا. ما هذه الروعة؟ إضاءة أمامية غير مباشرة، ورمال مصفرّة تلطّف من الظلال الحادة. ما كل هذا الجمال والتناسق؟ والصبي بساقيه الطويلتين بالغتي النحول كأعواد كبريت، ورأسه الضخم، وبطنه المنتفخ وسرّته البارزة. أوشكت على أن أضغط زر التصوير، حين تنبهت فجأة إلى عنصر هام يفتقر إليه هذا التكوين البديع.

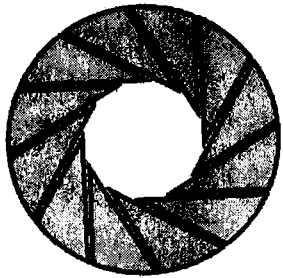

# الذباب!

مكتبة
t.me/t_pdf

هناك أكثر من اثني عشر ألف فصيلة مختلفة من الذباب حول العالم. لن أذكرها هنا بالطبع. أكثر من نصف تلك الأنواع تعتمد في حياتها على رَوَث الجِمال، أو الأفارقة المعدمين. كيف لا توجد ذبابة واحدة تحوم حول رأس هذا الطفل الذي يعاني من جفاف حاد؟ أمرٌ عجيب! الذباب يغطي كل شيء تقريبًا في هذا الجزء من العالم، بل إنه موجود داخل غرفتي في الفندق أيضًا! إنهم يطيرون معًا ويحطون معًا، كمجموعة من الأصدقاء

المقربين، لكن ها هو الصغير يذوي أمامي، دون أن تقترب منه ذبابة واحدة. لن تكون الصورة واقعية، أو منطقية دونها. لكنني لا أحبذ التدخل في تكوين الصور، وإفقادها التلقائية الخاصة بها، فذلك يتعارض مع مبادئي. أعرف الكثيرين ممن حصدوا جوائز عديدة على صور تدخلوا في تكوينها. ما الذي ينبغي عليّ فعله الآن يا تُرى؟ هل أتصل بالفندق وأطلب منهم جلب إحدى الذبابات التي يعج بها المكان لديهم على وجه السرعة؟ هل ستصبح الصورة أكثر إبداعًا هكذا؟

الحقيقة، إنني فكرت في ذلك فعلًا، لكنني قلت لنفسي، إنني إن انتظرت حتى يصطادوا ذبابة لي، ويضعونها في برطمان مربى فارغ، ثم يجلبونها إليّ، سيكون موضوع صورتي قد فارق الحياة.

أضغط على زر التصوير أربعًا وعشرين مرة متوالية.

مساء اليوم نفسه، أنتشل الصورة من ماء البانيو في حمَّام غرفتي بالفندق في "أديس أبابا"، الذي حَوَّلته إلى غرفة تحميض أفلام مؤقتة. يمكنك أن تدرك من اللمحة الأولى أنها صورة مثالية، لولا افتقارها إلى ذبابة.

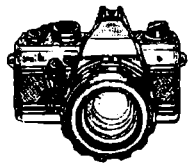

# مدينة "كرابوبيا" عام 1974

حلمتُ، في بعض الأحيان، بأنني أسرد هذه الحكاية في إطار الكلمة التي ألقيها عند افتتاح معارضي الفنية العديدة، وأنني أتلقى تصفيقًا مُدويًا وثناءً عظيمًا كل مرة يسمعها مني جمهور الحضور. في أحيان أخرى، كنت أتخيل أن كاتب السيَر الذاتية الشهير "إيريك نوسينسين" يبدأ مؤلفه عني بهذه القصة، قبل أن يكشف للقارئ أن رحلتي الحقيقية كمصور

لوكالات الأنباء بدأت وأنا في عُمر صغير.. في عيد ميلادي الثاني عشر على وجه الدقة.

في تلك الفترة، كانت "كرابوبيا" لا تزال مكانًا ينعم بالهدوء والأمان. قبل أن تتحول إلى بؤرة صراع متفجِّر. ورغم أننا كنا نقيم في العاصمة، فإن حيّنا حمل طابعًا ريفيًا مريحًا. لم نكن نملك الكثير، لكن ما لدينا كان يفي باحتياجاتنا. تجوب الطرقات فرقة مشاة موسيقية تقدِّم استعراضاتها للجماهير، ثم تتوقف للاستراحة في أي من البارات العديدة للمدينة. أول مؤخرة أنثوية لمحناها عن كثب، كانت لإحدى فتيات الفرقة، وهي تقدم حركاتها الراقصة. وبهزائمه الأسبوعية المتكررة، كان فريق الـ"رجبي" يصنع معروفًا في صاحب البار الرئيسي للبلدة، إذ يتوافد عليه مشجعو الفريق محاولين تناسي أحزانهم. معلمات المدرسة، يتعمدن عدم الاهتمام بمظهرهن الخارجي، والزغب الكثيف يعلو شفاههن. الاجتماعات المهمة تُعقَد في دُكَّان البقَّال. يقبل الناس على مشاهدة العروض المسرحية لفرق الهواة، ويتابعونها بتقدير بالغ. العرائس في مدينتنا كن دائمًا حوامل. هكذا كانت حياتنا.

من ضمن التقاليد المتعارف عليها عندنا، أن يسّكّر الأبوان في عيد الميلاد الثاني عشر لأيٍ من أبنائهما. ولأن والديَّ كانا من أشد الناس حرصًا على اتباع العادات والتقاليد، فإن الساعة لم تكد تدق الثانية بعد الظهر، حتى كانا يتوسطان بار "ويت آفترنون"، الذي اعتاد جميع أفراد الحي التجمُّع فيه، تتخلل حواراتهم أنفاس صاحب المكان المسموعة بوضوح، وصوت زوجته السمينة "نرسيس" التي لا تتوقف عن الغناء، وارتطام قطع الدومينو ببعضها وبأسطح الطاولات.

قبل أن نسارع بالتوجُّه إلى هناك، كنا قد انتهينا من تناول وجبة غداء فاخرة في المنزل، حضرها جميع أفراد العائلة. ما إن تعالَ تجشؤ الحضور، معلنًا عن إحساسهم بالشبع، حتى تقرر أن الوقت مناسب لإعطاء الفتى صاحب العيد هديته. العام الثاني عشر في حياة الإنسان هو خطوته الأولى نحو عالم النضوج. لم أعد طفلًا منذ استيقاظي من نومي ذلك الصباح، وارتدائي بدلتي الأنيقة المخصصة للمناسبات الهامة - والتي سوف أسكب عليها بعض الشوربة، دون قصد، لاحقًا- ولأنها سنة متميزة في العُمر، فمن المعتاد أن يتم تقديم هدية تماثلها في التميز، كأن تُثقب آذان البنات وتوضع فيها أقراط ذهبية. أمَّا الفتيان، فيتلقون ـ عادّة ـ ساعات، أو سلاسل يد تُحفر عليها أسماؤهم. هدايا، في مجملها، سخيفة إلى حد كبير؛ لكن قيمتها

الحقيقية هي أنها تشعرك بتقبل الأشخاص الأكثر نضجًا لك، وترحيبهم بك في عالمهم المختلف. إنه أيضًا اليوم الذي يسمح لك فيه الكبار بتدخين السيجار، برائحته المنفرة، للمرة الأولى.. شريطة ألا تسحب نفسًا عميقًا. فور بلوغك هذه السن، يبدأ الحلاقون مخاطبتك باحترام بالغ، ولا ينطقون اسمك إلا مقرونًا بـ"سيد"، ولهذا الأمر بهجة خاصة في الحقيقة. لكنني لم أتلقَ ساعة أو سلسلة يد.

لا شك أنه لم يفُت على والديّ ولعي بالوقوف أمام استديو التصوير طوال الأشهر الماضية. في البداية، كنت أختلس النظر إلى كتب الصور الفوتوغرافية للنساء العاريات المعروضة في الواجهة الزجاجية للمحل؛ ثم بدأت الكاميرات المختلفة في الواجهة هي التي تلفت انتباهي. أصبحت أتخيل نفسي وأنا أستخدمها بمهارة وحرفية في تصوير السيدات العاريات. لديّ أختان، إحداهما أكبر مني، والأخرى تصغرني ببضعة أعوام. نبت الشعر في أماكن مختلفة من جسد الكبيرة. لا أظن أنها ستمانع في تنحية واجباتها المدرسية جانبًا لبعض الوقت للوقوف أمام عدستي دون ملابسها. المسألة فنية بحتة، بطبيعة الحال.

يحتفظ أبي، المفعم بالرجولة والمهووس بالذكورة، شأن كل ذكور مدينة "كرابوبيا"، بتشكيلة من الكتب الإباحية على الكومودينو المجاور لفراشه، وهي التي حببت إليّ فكرة التصوير العاري، واتخاذه مهنة مستقبلية. حماسي للعمل في هذا المجال، شجَّعني على استذكار دروسي بجدية بالغة، لأن نجاحي المتواصل سيضمن تخرجي المبكِّر، وانضمامي لسلك العمل سريعًا. فور مغادرة أبي للمنزل، كنت أنكب على دراسة أوضاع العارضات العاريات في كتبه المصورة، وأرسمها في سكتشات سريعة، وأنا أفكر بأن أطلب من شقيقتي، وربما صديقاتها كذلك، تقليدها لاحقًا. ابتكرت في مخيلتي أوضاعًا أخرى، ورسمتها كذلك. احتفظتُ برسوماتي في ملف خاص، كتبت عليه ـ احتياطًا ـ "مادة الرياضيات".

في عيد ميلادي الثاني عشر، منحني أبواي كاميرا. كانت سعادتي ستكتمل لو أنني تلقيت "ياشيكا" أو "لايكا"، لكن رغم حصولي على أرخص الأنواع، "كوداك"، فإنني شعرت بالبهجة. أحضرا لي كذلك خمسة أفلام تصوير غير ملونة.

لم يبقَ الآن سوى إقناع أختي الكبيرة وصديقاتها بالمسألة.

اصطحبت هديتي معي إلى بار "ويت آفترنون"، إذ قررت بأنني لن أغادر البيت دونها منذ الآن فصاعدًا. قد أنجح في التقاط بعض الصور المعبِّرة هذا اليوم؛ ربما مثلًا واحدة لوالدي وهو غائب عن الوعي من كثرة الشُرب! نعم.. يجب أن تكون صوري مدروسة ومخطط لها، لا أريد أن أملأ الألبومات بلقطات عفوية لا معنى لها، لكن ما حدث لم يكن في الحسبان.. لم يفرغ والدي من إنهاء زجاجته الأولى، حين بدأ إطلاق النار داخل البار. كانوا من الثوار الذين بدأ نشاطهم ـ في تلك الفترة ـ يظهر بالتدريج. لا أدري ما الذي حل بي تحديدًا في تلك اللحظة، لكنني لم أنبطح على الأرض مثلما فعل الباقون. وقفت في مكاني، والتقطت صورة لأختي والرصاصة تخترق رأسها. لم أعِ ما كنت أفعل، لكن يمكنني أن أسمِّي تصرفي "حدس المصوّر".

لم تكن هذه هي الصورة التي حلمت بالتقاطها لأختي، ولم تكن ذات جودة عالية ـ تخيَّل لو أنني استخدمت كاميرا "كانون" مثلًا! لكنها في تلك الظروف كانت صورة قيّمة ولا تقدّر بثمن.

بدأ الناس يزحفون خارجين من تحت الترابيزات، وبدأت أنا في استيعاب ما حدث. تُوفي أربعة عشر شخصًا في هذا الهجوم، من ضمنهم

أختي. تقدَّم مني شخصٌ تغطيه الدماء، وعرّف نفسه بأنه صحفي، وسألني إن كنت حقًا قد التقطت صورًا لما حدث. أجبته: "نعم".

(أم هل اكتفيت بإيماءة من رأسي؟).

سألني عن المبلغ الذي أطلبه مقابل حصوله على الفيلم الموجود داخل الكاميرا. لا أتذكر مطلقًا الرقم الذي ذكرته، ولا أدري إن كان كبيرًا أم تافهًا، لكنني حصلت عليه في اللحظة نفسها.

صباح اليوم التالي، كانت الصورة تتصدر الصفحة الأولى في الصحيفة، وقد كُتِب تحتها "بايبول ماسلي".

هكذا بدأ الأمر إذًا.. بصورة تفتقد الجودة، وضعيفة تقنيًا، التُقِطَتْ على عجل.

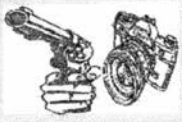

Daily News
Lorem Ipsum Dolor Sit Amet
بابيول ماسلي
The Feed

# الجزء الثاني

# "بايبول ماسلي لاجئًا"

## بين قسوة بريطانيا وبردها القارس

هذا الجو ليس للاختباء داخل حاوية. كم درجة الحرارة الآن؟ خمسة تحت الصفر؟ أكثر برودة من ذلك؟ ليس لديّ أدنى فكرة، لكن المؤكد أن الجو متجمد. بِرَك الماء الصغيرة على الأرض تجمدت وبدت كأسطح زجاجية. أصيب الأفارقة بلوثة عقلية، ففي هذا الصباح، حين نظروا من نوافذهم، وجدوا أن العشب البائس تحت حبال الغسيل، قد اكتسى باللون الأبيض. العشب دائمًا أكثر خضرة في المكان الذي أتوا منه، وهو ما يتفق

عليه الجميع باختلاف جنسياتهم، سواء كانوا من السود، أو الصُفر، أو الحُمر. لكن، هذا الصباح بالتحديد، لم يستطع الأفارقة كبح دهشتهم من منظر هذا العشب.

إنه الثلج! في المبنى رقم 2 - حيث يقيم أغلب السود - تعالت الأصوات، وتداخلت في سرور حقيقي. المكان الوحيد الذي يمكنهم أن يروا فيه الثلج هو "جبال كليمينجارو"، ونظرًا لأنهم لم يشاهدوا شيئًا كهذا من قبل، فقد تدافعوا إلى النوافذ، وأطلوا منها مبتهجين، محاولين التقاط شيء من هذه المعجزة الجوية في أكفهم المفتوحة.

لم يستطع الشيشان التوقف عن الضحك. ليس من الحكمة أن تجمع بين شيشاني وأسود. تلك فكرة غير صائبة على الإطلاق. كأنك تضع أشهر مطربتين متنافستين في الأوبرا - "ماريا كالاس" و"ريناتا تيبالدي" - على مسرح واحد، في اللحظة نفسها! هكذا هو الأمر بالضبط. إن طلبت من أفريقي وشيشاني أن يتشاركا حجرة واحدة، فعليك أن تكون مستعدًا بتابوت من قبل حتى أن ينتهيا من تقرير من منهما سينام في السرير العلوي. إذا سمعت صوت ندب وعويل ينمان عن العذاب، فاعلم أنه صادر عن شخص أسود يتعرض لضرب مبرح على يد شيشاني. كن متيقنًا من

ذلك. جميع هؤلاء الشيشان يحترفون ملاكمة الـ"كيك بوكسينج". انظر إلى صدورهم العريضة. إنها تمتد من هنا إلى هناك! وكل تلك الركلات التي يتلقونها في الجانبين تؤثر بشكل بالغ على الكلى. يمكنك أن تشتمَّ ذلك في رائحة بولهم. تراه حين ينسون تنظيف المرحاض عقب الانتهاء من استخدامه. اللون يشبه لون بيرة "المزر" البني الغامق، والذي ربما يكون مختلطًا ببعض من الدم.

كالعادة، ينبغي عليك ألا تنجرف وراء تخيلاتك عن أمور لا تعرفها وتتمنى رؤيتها، كالنساء الجميلات، وإنجلترا، والثلج. لذلك أحس الأفارقة بمزيج من الإحباط والفشل حين رأوا الثلج هذا الصباح، فالفكرة التي يمتلكونها عنه في رؤوسهم، لم يكن لها أي علاقة بالواقع. اعتقدوا أن بإمكانهم الإمساك به، وتشكيل كُراتٍ منه يتقاذفونها فيما بينهم. بطبيعة الحال، كان هذا مثار سخرية الشيشان، وسببًا لتعالي قهقهاتهم مرة أخرى.

الحقيقة، إن ما تساقط اليوم لم يكن ثلجًا، بل كان جليدًا وبَرَدًا. ولكن كيف يمكن ترجمة ذلك؟ بذل الروس جهودًا كبيرة لشرح الموقف، وأخذوا يصدرون أصواتًا غريبة من حلوقهم، وهم يحكّون رؤوسهم في حيرة

لفشلهم في تفسير المسألة عبر لغة الإشارة. تساءلوا فيما بينهم عن معنى الكلمة بلغة الأدغال!

"جليد". تمنيت لو أمكن ترجمة الكلمة إلى شيء على نحو "قصائد شعرية" مثلًا، ولكن ما علاقة الشِعر بهذا المكان، ورقعة العشب الصغيرة، وحبال الغسيل؟

تلك الحبال التي حاول "سيدي"، منذ فترة قريبة، أن يشنق نفسه بها. سفّــه البعض من محاولته الفاشلة، ولكنهم ـ مع ذلك ـ لم ينطقوا كلمة "انتحار" عند حديثهم عمّا حصل. لا أحد منا يستخدم هذه الكلمة هنا. نشير إليها بـ"وَضَعَ نهاية للمسألة".

على أي حال، حاول "سيدي" أن يضع نهاية للمسألة، وهو ما يفكر به كل شخص هنا، مرتين يوميًا على أقل تقدير.

"سيدي" من سيراليون، وهي الدولة التي يشعر الجميع حيالها بالأسى بمن في ذلك "مكتب الأجانب". مَنْ يحملون جنسيتها، يملكون فرصة كبيرة لنَيل الموافقة. الجميع يعرف ذلك، وأولهم "سيدي" نفسه، لكن صبره نفد عقب حصوله على الرفض مرتين متتاليتين. تعلو قسماته

الآن ملامح أسى عميق، ما يؤهله ليصبح نجم صور حملات الإغاثة الإنسانية بلا منازع. يبدو أن محاميًا من منظمة العفو الدولية قد تولى قضيته، وهو ما لا يحدث لكل الناس، لذا ينبغي عليه أن يتوقف عن الشكوى والتذمر طوال الوقت. وفقـًا لتقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة مؤخرًا، فإن سييراليون تحتل المرتبة الأخيرة من حيث سهولة العَيش فيها. هذه معلومة يمكن استغلالها لإثارة تعاطف المسؤولين في بروكسل خلال المقابلة التي يجرونها لك. هناك أشخاص على استعداد لبتر أيديهم، ليتمكنوا من البقاء هنا، هربًا من ويلات بلدانهم.

- مساء الخير.. أنا من الدولة المثيرة لأقصى حالات الشفقة، في العالم بأسره، وأودّ تقديم طلبًا للجوء.

الصينيون، على سبيل المثال، قفزوا بسرعة هائلة من مراتبهم المتدنية، ونجحوا في الوصول إلى المركز السادس والتسعين، وبذلك تضاءلت فرصهم في الحصول على الجنسية.

في الحقيقة، سلوك "سيدي" مثير للدهشة، فأغلب الأفارقة هنا يتمتعون بالمرح واللامبالاة، أغلب ساعات اليوم، عدا تلك التي يتعرضون فيها للضرب من قِبَل الشيشان بالطبع، عليهم أن يخففوا من مرحهم

المتواصل، في رأيي، وإلا فإن وزارة الداخلية لن تقتنع بأن هذه الشخصيات السعيدة تعاني العذاب في بلدانها. على سبيل المثال، هناك "آسيا"، من مبنى 4، التي لا تتوقف عن هزّ مؤخرتها الممتلئة، وهي تدندن بالغناء، حين تقوم بتنظيف الحمامات وفرك أرضياتها. يا للحماقة!! نظل ننصحها بأن تقلل من بهجتها الواضحة، وأن تتصرف على نحْو أكثر حزنًا، حتى يصدّق موظفو بروكسل بأنها تعرضت لبتر وتشويه أعضائها التناسلية، وأنهم الحِصن الذي ترغب في الاحتماء به، حتى لا تتعرض بناتها لمصيرها المؤلم نفسه.

ختان الإناث موضوع مرتبط بثقافة المجتمع. ختان الإناث لا يرتبط بالحضارة. الإنسان يميل لتكرار موروثه الثقافي والحفاظ عليه.

تلقت "آسيا" الرفض مرتين على طلبها باللجوء. لم يبقَ لها إلا فرصة واحدة أخيرة، وبعدها سيضعونها على أول طائرة مغادرة. تصرُّف نبيل بطبيعة الحال، فالسفر يوسِّع آفاق الإنسان.

قبل سنوات، كانوا يقومون بترحيل اللاجئين المرفوضين على متن الطيران البلجيكي الوطني "سابينا"، ولكن بما أن الشركة توشك على الإفلاس، فإنني أتوقع أن تتم رحلات المغادرة - في القريب العاجل - على طيران "لوفتهانزا"

مثلًا. سوف نستمتع بخدمات أفضل، ومضيفات أكثر أناقة. هذا أيضًا ما يؤكده "إيزي"، صاحب المحاولة الثالثة للجوء، والذي يحفظ الأفلام التي تُعرَض في الرحلات المختلفة لتسلية الركاب، عن ظهر قلب.

المهم.. اليوم غير ملائم لإلقاء محاضرة على الأفارقة حول الاحتباس الحراري والتغير البيئي. تلك نوعية من المشكلات التي لا تثير اهتمامهم. يعلنون على الفور بأن الأمر غير صحيح، بدليل البرد القارس الذي يمنع الإنسان من التسلل داخل حاوية.

كل شيء حولنا متجمد. فحينما خُلق الأفارقة، لم يتم تزويد أجسامهم بخاصية تحمّل البرودة؛ على العكس من هؤلاء القوقاز الذين يتمشون في المكان بقمصان قصيرة الأكمام، في محاولة ماكرة لإثارة بعض الاستفزاز، يستكملونها بالمزاح مع "نيكي" الزنجي. فلننتظر حتى يتأخر الردّ على طلباتهم، وتبقى ملفاتهم حبيسة الأدراج لعدّة أشهر، عندئذٍ سيهجم الصيف، ويتحول المكان إلى فرن بيتزا.. سنرى حينها إن كانوا سيستمرون في الابتسام والضحك كما يفعلون الآن. سيتساقط العرق من أجساد تلك الدببة القطبية، وأظن أنه يتوجب على الأفارقة السخرية منهم حينها.

يفتح مخزن الملابس أبوابه تمام التاسعة صباحًا.

في اليوم المشؤوم الذي يلقون فيه القبض عليك، ويحيط بك رجالٌ يرتدون زيًّا رسميًا لهم مظهر رصين، ثم يدفعون بك أمام أجهزة مختلفة للأشعة، تُسَلِّط على جسدك المرتعش أضواءها البرتقالية، وينتهي الأمر باصطحابك إلى هنا - أي مركز اللاجئين - فإنهم لا يمنحونك بطاقات تصرفها كوجبات غذائية، بل يعطونك نقاطًا.. ألف وخمسمائة نقطة تحديدًا، لتشتري بها ثيابًا.

مخزن الملابس عبارة عن غرفة تمتلئ بقطع ثياب ـ معلَّقة بنظام بالغ الترتيب ـ تبرعت بها عائلات بلجيكية. قبَّعة صوفية، على سبيل المثال، تكلّف خمسًا وعشرين نقطة.

ينص قانون الملجأ على ألا نتردد على المخزن أكثر من مرة واحدة أسبوعيًا، وإلا فإننا سنمضي أغلب أوقاتنا بين جنباته ونحن نقيس قطعًا مختلفة، للقضاء على الملل. ولما كانت المرأة البلجيكية تتمتع بالأناقة، ولا تتردد في التخلص من الملابس التي لم تعد تناسب أحدث صيحات الموضة أولًا بأول، فإن نساء الملجأ يقفن حائرات أمام التنوع المذهل في الثياب المتوفرة؛ أمَّا الرجل البلجيكي، فإنه لا يتخلص من جواربه إلا بعد أن

تظهر خمسة ثقوب على الأقل في كل فردة! لكننا لا نجد مشكلة في ذلك، على كل حال.. شكرًا.. شكرًا!

لا يهتم الأفارقة بالبحث عن القطع التي تحمل نقوش جلود الحيوانات. لا يرغبون في ملابس داخلية بنقشة جلد النمر. يريدون قبَّعات صوفية، وكوفيات ثقيلة، وقفَّازات سميكة. أشياء من ذلك القبيل. يقولون بجدية بالغة:

- نريد غطاءً لتدفئة الأنف.

ثم يتساءلون على الفور، بحيرة:

- هل هناك أغطية للأنوف أصلًا؟

الجو قاسٍ، والبرد قارس، ودرجات الحرارة منخفضة للغاية، والجميع يتمنى ألا يحمل له البريد رسالة مسجّلة.

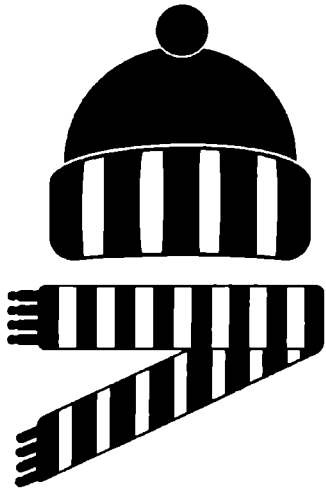

## لا أحد يجيد تصفيف الشعر مثل "رامونا"

لطالما تملكه الخوف من النساء، لكن إحساس "رجيب" تجاه مصففة الشعر في القرية مختلفٌ تمامًا.

طال شعره، وبدأت خصلاته تلامس مؤخرة عنقه. يُقال إن الشعر يستمر في النمو لثلاثة أسابيع عقب وفاة الإنسان، ولذلك تضع بعض الشعوب مقصًا في قبر المتوفي. من الطبيعي أن يحتاج كل شخص، حتى ولو كان لاجئًا، إلى قص شعره بانتظام، ومع ذلك فإن "رجيب" يشعر بالدهشة

كلما لاحظ الشعر الخفيف الذي ينمو على رأسه المسكين. يمكنك أن تدعوه نوعًا من الأمل أن يظل شيئًا - حتى ولو كان القليل من الشعر – ينمو على جسدك. لقد تخلص مؤخرًا من الحبوب التي كانت تملأ وجهه، ولم تعد دماؤه تسيل، كلما قام بحلاقة ذقنه. جسده بحاجة إلى كل دهنٍ يمكنه الحصول عليه، خصوصًا بعض أن فقد الأمل في إخراج الصديد من جسده.

حين يصبح شعرك طويلًا، تتوجه إلى مكتب الاستقبال لطلب كوبون حلاقة، يمكنك استخدامه في صالون تجميل "رامونا"، الذي يقع على بعد ثلث ساعة من مركز إيواء اللاجئين، إن ركبت الدرَّاجة الصدئة الموجودة في المكان.

لـ"رامونا" رائحة كريهة. لا يظن "رجيب" أن سببها هو العرق، بل إنها إحدى سماتها المميزة، والتي تتوافق مع مظهرها.. جسدها البدين، وبشرتها ذات اللون الفاقع، وثدييها المترهلين، وتسريحة شعرها الرديئة، والتي يبدو أنها هي من قامت بقصّه لنفسها. ورغم أنها ليست من النوع الذي يلفت انتباهه، أو يثير إعجابه، فإنه لا يستطيع التوقف عن التفكير في عضوها التناسلي الرطب، داخل الشورت القبيح، عتيق الطراز، الذي يتصور أنها تلبسه تحت ثيابها.

هكذا هو على الدوام.. يرتعب من النساء البغيضات، لكنه لا يستطيع التوقف عن التفكير بهن، ويؤكد لنفسه أن القبح والقذارة وكل شيء مقزز يبدأ من بين سيقانهن، ثم ينتشر في كل مكان. هكذا كان يشعر تجاه أمه أيضًا.

يضع القسيمة على الترابيزة في مدخل الصالون، ويبتسم لها، وللسيدات اللواتي يتم تجفيف شعورهن المبللة. يخشى أن يبدو غبيًا. تنظر "رامونا" إلى الورقة التي تم ختمها من قبل إدارة مركز اللاجئين، ثم تتفحصه من رأسه حتى قدميه، وتتشممه. يتخيل نفسه وهو يقوم بخنق هذه البقرة السمينة. يتذكر الطريقة التي علمه إياها جده لذبح الدجاج.. تخنق رقبة الدجاجة بقوة، وأنت تراقب مؤخرتها إلى أن تبدأ في إفراز سوائل بيضاء، عندها فقط تعرف أنها ماتت وتبعد قبضتك عنها. سوف يفعل الشيء ذاته مع هذه المرأة. يبدو أنها تبادله الشعور نفسه، وأنها تشعر بالنفور منه. تشير إلى مقعد فارغ بإصبعها في صمت. يفهم أن عليه الجلوس هناك، وسط أكوام المجلات التي تمتلئ بأخبار النجوم، وبموضوعات عن كيفية الوصول إلى الرشاقة دون مجهود، وموضة مايوهات الصيف القادم، وطرق تكبير الصدر، واللون الأزرق سيد الموسم المقبل، وكل هذه التفاهات.

يقترب منه كلب صغير، لا يدري إن كان لها أو لإحدى زبائنها، ويتمسح في ساقه.. يبدو أن لديه هوسًا ما بأحذية البوت القصيرة.

يشعر "رجيب" بأعين العاهرات العجائز وهي تراقبه من خلف مجلات النميمة التي يفردن صفحاتها أمام وجوههن. إنهن يتحدثن عنه، دون أن يفكرن ـ للحظة واحدة ـ بأنه قد يكون ملمًا بلغتهن، ويفهم جيدًا ما يقلنه. يتكلمن عن شخص أجنبي، قذر، وأنه واحد من الآلاف المؤلفة من طالبي اللجوء الذين يملؤون البلد. تعلن إحداهن أن إصرار الكلب على التمسح به، يدل على شيء واحد فقط.. هذا الجالس على ذلك المقعد ينتمي لذوات الأربع. تتعالى همهماتهن وهن يتبارين في تخمين أصله، وفي اختيار الوظيفة التي تلائم كائنًا مثله. تقترح واحدة أن يعمل في جمع الفضلات.

إنه يعرف تلك الداعرة ذات الأظافر المصبوغة بعناية. إنها زوجة ذلك المحامي الذي أسّس فرعًا محليًا للجبهة الفاشية. حزبه يعارض كل شيء، ولا يؤيد أي شيء. يفكر "رجيب" بأنه إن قام بلمس هذه المومس، فإنها ستعاني من سكتة قلبية. ربما عليه أن يدخل لسانه في فمها.. هكذا تفعل ذوات الأربع، أليس كذلك؟

تلتفت إليه "رامونا" أخيرًا، وتطلب منه الجلوس على كرسي الحلاقة. تبالغ في إظهار احترامها، وتخاطبه مستخدمّة لقب عائلته:

- كيف تحب أن أصفف شعرك اليوم يا سيد "موكا"؟

تضيف فجأة، باستهزاء:

- هل تريده "كانيش"؟ أو ربما ضفائر "راستا"؟ أم لعلك تفضّل أن أحلقه لك بشكل قصير جدًا؟

تعالت ضحكات النعاج العجائز، حتى خشي "رجيب" أن تبتلع إحداهن طقم أسنانها. قرر أن يتشاغل عن التفكير في إهانات الكوافيرة، بأن يقوم بإحصاء التجاعيد على وجوههن العجوز؛ لكنه سرعان ما راح يفكّر في السكاكين وفي أنياب الكلب الصغير.

تغاضى عن نظرات "رامونا" المستفزة، وهي تتناول زجاجة شامبو القضاء على القمل. وبفجاجة بالغة، سكبت محتويات العبوة بأكملها على رأسه. شعر بحرقان في فروة رأسه.

- هذا يسمّى "غسل الشعر" يا سيد "موكا". كرر ورائي.. "غسل الشعر".

- لماذا يغسل الأوروبيون الشعر الذي سيقومون بقصه عقب دقائق؟

يغمض عينيه، ويركّز تفكيره على أصابع "رامونا" السمينة وهي تفرك المحلول المطهر في خصلاته بقوة بالغة. تقترب من مقعده.. يشعر بمصنعيّ الحليب المتهدلين وهما يلتصقان بكتفيه. تواصل دعك فروة رأسه، كأنها توشك على سلخها عن جمجمته. يقول لنفسه إنها لن تتوانى عن شطف رأسه بماء مُثْلِجْ، وعن جرح أذنيه بمقصها الحاد، وأنها ـ على الأغلب ـ سترشّ رأسه بمبيد حشري أو بمعطرٍ للجوّ. لكنه مستمتع، رغم كل شيء. يواصل إغماض عينيه، ويسمح لنفسه بالانتصاب. لو أن "رامونا" نظرت إلى نصفه السفلي، لرأت حقيقة الوضع. إنه ليس مريضًا أو مختلًا.. كل ما هنالك أن أحدًا لم يلمسه، بأي شكل من الأشكال، منذ زمن بعيد.

# رحيل "تشيريبي"!

مكتبة
t.me/t_pdf

## أين كنت حين هاجموا نيويورك؟

الحظ، بالنسبة لمتسلقي الجبال، مسألة مهارة، لكنني لا أعرف إن كان ذلك صحيحًا. هل كان افتقاري للمهارة إذًا هو السبب في عدم تواجدي في نيويورك ذلك اليوم؟ كان ينبغي عليّ أن أكون هناك، ومعي الكاميرا الـ"كانون" الخاصة بي، لأخلّد صورة الخطّين الأبيضين اللذين يقطعان

السماء شديدة الزُرقة، في الذاكرة الجمعية، إلى الأبد. هل كان افتقاري للمهارة هو السبب في انتزاع النظام الديكتاتوري في بلادي للبطاقة الصحفية مني، أنا.. "بايبول ماسلي"، وحرماني من السفر إلى هناك؟

عوضًا عن تصوير ذلك المشهد التاريخي، كنت أقبع في مبنى 10، ألعب الشطرنج مع "تشيريبي"، الهارب من "طالبان". ظننت بأنني أسيطر على الوضع، لكنه سرعان ما دفع بحفنة من البيادق إلى الأمام، مجبرًا إياي على التراجع. لا أقصد المباهاة، ولكن الحقيقة أن "تشيريبي" هو الوحيد ـ حتى الآن ـ الذي استطاع أن يفاجئني بمثل هذه الحركة غير المتوقعة. لم أرَ في حياتي شخصًا يحرك القطع السوداء بهذا التمكن.

عقب رفض طلبه مرتين، بدأ "تشيريبي" يشعر بقلق بالغ، وقبل ثلاثة أيام فرّ من مركز الإيواء، متجهًا إلى إنجلترا، إذ توقع أن يقابَل طلبه باللجوء بإجراءات أكثر تعقيدًا، عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

في ذلك اليوم، استولى الأفغان على الريموت كونترول، ولم يعترض أي شخص.. عادّة ما يتجادل الجميع.. كل مجموعة ترغب في متابعة مسلسل ما، أمَّا الصوماليون فإنهم يصممون دائمًا على مشاهدة قناة "ناشيونال جيوجرافيك"، لمتابعة الحيوانات التي تركوها في ديارهم، على الأغلب. لكننا،

نهار الحادي عشر من سبتمبر، التزمنا الصمت جميعـًا، ورحنا نتابع "سينما الجحيم".. نعم.. فقد بدا الأمر بأكمله أشبه ما يكون بالجحيم الذي كتبه "دانتي". الواقع أن الصور المعروضة على الشاشة كانت خلابة.. لا يمكن إنكار ذلك.

بعد الحادث، أُصيب المسلمون من نزلاء المركز بالهلع حتى خيّل إليّ بأنهم سيبللون سراويلهم السميكة من شدة الفزع. كانوا يخشون من ردّ فعل انتقامي؛ ثم امتلأت الصحف بمقالات عديدة تشير جميعها إلى تنبّه العالم ـ أخيرًا ـ إلى مشكلات أفغانستان. أحس "تشيريبي" بالارتياح، واطمأن إلى قرب حصول طلبه على الموافقة.. لكن الأمريكان قاموا بإسقاط بضع قنابل، وأكدوا أنهم سيقومون بتسوية المسألة هناك.

ملفه إذًا يضم رفضين، وترحيل وشيك لا يرغب فيه بتاتـًا. عدُد قليلٌ منًا في مبنى 4، حيث أنام في الغرفة رقم 26، يعرف بأنه ينوي الهروب. علاقـة وطيدة تربط بين "مقصود" الكشميري، أقرب صديق لي في المكان، و"تشيريبي". إنهما بمثابة شقيقين. حين توجه "مقصود" لتوديع صديقه، أسرّ له بأن هناك حاوية بضائع سوف تغادر إلى إنجلترا، ونصحه بالرحيل

بأسرع ما يمكن. شربا معـًا كوبين من الشاي المحلّى بالكثير من السكر، ثم احتضنا بعضهما. بعدها، غادر "تشيريبي" على الفور.

لهذا السبب، عليك أن تبقي فمك مغلقـًا اليوم، في وجود "مقصود" الذي أمضى ليلة أخرى دون أن يغمض له جفن، وهو ينصت باهتمام إلى محطة الـ"بي بي سي" على الراديو الترانزيستور، منذ أول ساعات المغرب، حتى حلول الفجر. تمّ اعتراض حاوية في "ويكسفورد" بآيرلندا، وعُثِر فيها على جثث ثمانية لاجئين. لم يتم التعرف على هويات المتوفين، ولكن المؤكد هو تسللهم إليها في بلدة "زيبروجا" الساحلية. الأمر بديهي.. كل الناس يعلمون أن الهروب بهذه الوسيلة يتم عادة في هذه القرية البلجيكية تحديدًا.. سكان الجبال في كازاخستان يعرفون ذلك، وزبائن دكاكين الكوكايين في طاجيكستان يعرفونه أيضًا.. الجميع يدرك أن مفتشي الجمارك في "زيبروجا" ليسو سوى أضحوكة. المهربون، الذين يتقاضون منا مبالغ مالية ضخمة جدًا، ليقوموا بإرسالنا إلى إنجلترا، حيث سنترنم بأغنيات وطنية إنجليزية مثل "تلال دوفر البيضاء"، يدركون جيدًا أنه لا مخبأ أفضل لأمثالنا من الأرصفة الكئيبة لموانى بحر الشمال. لكن على أولاد الحرام هؤلاء أن يتأكدوا أولًا من أن السفن التي سنركبها، داخل صناديق معدنية محكمة الإغلاق، متجهة إلى إنجلترا، وليس آيرلندا. لن تتمكن من

النجاة في الأغلب. قلنا لـ"تشيريبي" بأن لا أحد يتحمل البقاء داخل حاوية، في هذا البرد القارس.

"مقصود" يشعر بأسى بالغ، وكلنا نشاركه المشاعر ذاتها.

نجتمع في الردهة التي تفصل بين الحجرات، ونقف بجوار المدفأة المعدنية، لندخن السجائر. ونظرًا لأن لكل منَّا عبوة سجائر واحدة أسبوعيًا، فإننا لا ندخن بشراهة كما يتطلب الموقف. نحدّق في الراديو ونحن نستمع إلى نشرات الأخبار، ونصب غضبنا ولعناتنا على إنجلترا. إنها ليست أرض الأحلام بالنسبة لعدد منا. ما الذي قد يجذبك لتلك الأرض؟ الطعام هناك ليس أفضل من العلف الذي يُقدَم إلينا في المركز هنا؛ ثم إنها بلد يفيض بالفاشلين، ويمكنك الدخول والبقاء هناك دون أوراق رسمية أو أي نوع من الإثباتات.. كل ما عليك فعله هو التسلل إليها، ومحاولة البقاء على قيد الحياة داخل تلك الصناديق، دون أن تختنق أو تتجمد. الأمر بسيط، وأشبه ما يكون بلعبة أطفال ساذجة، ثم إنهم شعب غريب الأطوار، يتبادلون النكات والعبارات المضحكة بجدية تامة، وبملامح صارمة. أفضل ما قدموه للبشرية هو فريق الـ"بيتلز" الغنائي، وإذاعة الـ"بي بي سي". فقط، لا غير. تلك المحطة الإذاعية تعلن الآن أن الحاوية كانت تضم خمسة أشخاص

آخرين، وأنهم في حالة حرجة. لم يذكروا أسماءهم، واكتفوا بجنسياتهم.. إنهم من تركيا وألبانيا والجزائر. صرّح وزير العدل الآيرلندي بأنه سيمنحهم حق اللجوء إلى بلاده.

"موسو" يتضور جوعًا، والأصوات الصادرة عن بطنه تؤكد ذلك. يسألنا إن كان لدى أحد منا شيء يمكن أكله؛ فتات خبز يابس، أو بقايا تفاحة. إنه على استعداد للتنازل عن خمسين نقطة مما لديه مقابل أي طعام. ليس هناك أي شيء يمضغه.. أظافر يديه ربما؟ إنها غلطته، إذ لم يأكل شيئًا من وجبته اليوم. وزّعوا علينا بعض الخبز والطماطم فقط إلى جانب أكواب ماء. "موسو" لا يتحمَّل مطلقًا رؤية ثمرة طماطم. كان قد تسلل هاربًا إلى هنا في سيارة نقل تحمل محصول طماطم، واختبأ فيها لمسافة تزيد على الألفي ميل. ومنذ ذلك الوقت يشعر بالغثيان من هذه الثمرة. بات يُعرف بيننا بلقب " الجنرال توماتوسكي".

عند حلول الساعة العاشرة صباحًا، نتزاحم أمام مكتب الاستقبال للحصول على الصحف.. الجميع يرغب في معرفة مصير "تشيريبي". تتخاطف الأيدي الجرائد المختلفة. يمكن تلخيص أخبارها الهامة كالتالي: "موظفو مدينة "آنتويرب" يتمتعون باستراحة غداء أطول مما يجب"،

و"البريطانيون يسرفون في الشُرب خلال فترة الكريسماس، ويتغيبون عن أعمالهم بعدها، متسببين في خسائر تبلغ نحو 229 مليون جُنيه إسترليني لخزانة الدولة"، و"الأوضاع الإقتصادية الحالية غير ملائمة لشراء أسهم في نوادي كرة القدم"، و"الشعب في فنزويلا يشعر بانزعاج شديد بسبب قطع بث عدد من المسلسلات الشهيرة لنقل كلمة الرئيس"، و"الصينيون يستخدمون عقار الفياجرا لزيادة كفاءة الأداء الجنسي لدى النمور"، و"فلان الفلاني ينال درجة شرفية لمهارته الفائقة في العزف على آلة الهارمونيكا". كل هذه العبارات، ولا شيء أبدًا عن الأفغاني الذي اختفى عقب تسلله إلى حاوية في ميناء "زيبروجا".

فجـأة، أسمع لحنًا من موسيقى "باخ". إنه موبايل الجنرال "توماتوسكي". كل فرد منا هنا يمتلك واحدًا، وإلا فكيف يمكننا التواصل مع عصابات مافيا التهريب حين يضطرنا وزير الداخلية ـ برفضه المتكرر ـ إلى الاستعانة بخدماتهم؟

إنه "تشيريبي"، وهو على قيد الحياة. يتصل برفاقه ليطمئنهم أنه بخير.

- لا مشكلة يا صديقي.

كعادته في ارتكاب الأخطاء الغريبة، ركب "تشيريبي" سفينةً غير التي كان يُفترض به الاختباء بها؛ وأغلب الظن أنه لم يفهم تعليمات المهربين، وتعمد ألا يُظهر لهم ذلك!

على كل حال، حين غادر الحاوية، والتي لم تكن تحمل محصول طماطم، بل عبوات زبدة وبعض المخدرات، تعجَّب من الجو الدافئ بالنسبة لهذا الوقت من العام في إنجلترا، وسرعان ما اكتشف أنه في إسبانيا!

- كيف حالكم هناك أيها الكسالى؟ هل تعانون من البرودة الشديدة؟ تعالوا إليّ لنستمتع بالدفء.

سوف يصلي "مقصود" هذه الليلة، ويتضرع لخالقه، بامتنان شديد. أما صديقنا الأفغاني، فسوف يلقي أفراد الأمن القبض عليه، حتمًا، خلال بضعة أيام، ثم يرسلونه إلينا ثانيّة في بلجيكا، حيث الوطن بعيدًا عن أرض الوطن! وبالنسبة للشخص الذي استولى على فرشاة أسنان "تشيربي" بعد رحيله، فإنه مضطر لإعادتها إليه قريبًا.

## قرار التوطين رقم 174BLZ18:

## الكاتب البلجيكي "روجر فان دي فيلد" يلقي نكتة في البار

لم تسنح الفرصة لـ"لود" من قبل للتأكد ممَّا إذا كان للسود أعضاء تناسلية أطول من المتعارف عليه حـقًا أم لا؛ لكنه مصمم على معرفة صحة ذلك من عدمه.

وقف تحت الدش، في حمَّام المُجمَّع الرياضي التابع للبلدية، ليزيل عن شعره بعض الطين الذي علق بخصلاته أثناء التدريب. يتردد "لود" على الملعب مرتين أسبوعيًا ليتمرن على كرة القدم. إنه يعشق هذه الرياضة،

ويستمتع بالجهد الجماعي لتسديد هدف في مرمى الخصم. أضاف الفريق، الذي يتكوَّن من مجموعة من الأصدقاء الهواة، شخصًا أسود إليهم. استطاع اللاعب الجديد أن يثبت مهارته الفائقة خلال التدريبات الأخيرة، ما يعني أن مباراة الأحد القادم ستكون شديدة السخونة. إنه سريع الحركة، ومتيقظ، ويمتلك سيطرة تامة على الكرة.. لديه ميول استعراضية بعض الشيء، خلال اللعب، لكن تفوقه الملحوظ يجعل التغاضي عن هذا العيب سهلًا. قابلوه جميعًا بالترحاب، ولم يقل أي منهم كلمة جارحة في حقه. الواقع أن عدد الفريق الأصلي آخذ في التضاؤل.. فبين الحين والآخر ينسحب أحدهم بسبب مشكلة أسرية أو أخرى، أو يتوقف غيره عن اللعب تمامًا بسبب التقلبات المرتبطة بتقدم السن؛ ولذلك فإنهم يشعرون بالامتنان لأي شخص يكمل عدد فريقهم إلى أحد عشر لاعبًا!

على الرغم من كثرة تفكيره في المسألة، فإن "لود" لم يكن مهووسًا بمعرفة مدى طول الأعضاء التناسلية للسود. هناك أمور أكثر أهمية في هذه الحياة طبعًا. ما أهمية الطول على كل حال؟ لقد قرأ مرة بأن الأطوال تتساوى تقريبًا عند الانتصاب، وأن الفروق العِرقية، إن وُجِدت، لا تبدو واضحة إلا عند ارتخاء العضو، ولكن لمَ كان زميله الأسود يوشك على

الوقوف تحت الدش المجاور، فإنه لم يستطع مقاومة اختلاس النظر إلى جسده، علّه يتوصل إلى وضع نهاية لهذه القضية المحيّرة.

حسنـًا.. الاختلاف واضح وملحوظ من مجرد نظرة. إنه أضخم مما يعرفه "لود"؛ ودون تفكير، وجد نفسه يسأل زميله الجديد:

- لماذا يمتلك السود أعضاء طويلة؟

الشاب الأسود، والذي يدعى "سو".. نعم.. نعم.. هذا هو اسمه، لأن لكل إنسان في هذه الحياة اسم يسهِّل الأمور على الأمهات عند مناداة أولادهن لتناول العشاء مثلًا، على أي حال أحس "سو" بشيء من الزهو، وقال مدعيًا اللامبالاة:

- يمكن للرجال البِيض أن يمتلكوا مثلها.

تساءل "لود" عن كيفية تحقيق ذلك. شرح له "سو" الخطوات التي يجب اتباعها.

في تلك الليلة نفسها، كان "لود" يربط قالبًا حجريًا يقترب وزنه من كيلوجرام واحد في ذلك الجزء من جسده. بدا الأمر منطقـًا وعلمـًا.. كل شيء يتعرض لجذب مستمر، قابل للاستطالة.

قرر "لود" أن يمارس حياته الطبيعية، ويعمل ويغتسل وينام وذلك القالب الحجري مربوط في جسده، إلى أن يتحقق المراد.

عقب مرور أسبوع، حين سأله "سو" عن إن كان قد لاحظ أي تقدم فيما تحتويه ملابسه الداخلية، أجابه "لود" بابتسامة عريضة، وسعادة بالغة:

- لم يصبح أطول بعد، لكنه تغيَّر فعلًا، وأصبح لونه أسود.

# "روكي"

## الجزء الأول

عادّة، بعد أن أجيب الناس عن سؤالهم عمّن يشاركني غرفتي، يحاولون مداراة حرجهم ببعض الابتسامات، سواء أكانوا من موظفي المركز، أم من طالبي اللجوء. لا أظن أن أحدًا يقبل أن يتبادل معي غرفتي، رغم أنني على استعداد لدفع علبتي سجائر، أو أكثر، مقابل هذه الصفقة.

زميلي في الغرفة ملاكم أوكراني سابق، يدعى "إيجور"، وبسبب اسمه يناديه الجميع "سترافينسكي".. كالموسيقار الشهير "إيجور

سترافينسكي"؛ لكن الحقيقة هي أنه لا علاقة له بالفن والموسيقى من قريب أو بعيد. شيء واحد ربما يربطه بالملحن الشهير، وهو الرغبة في أن يصبح فرنسيًا. يتلخص مفهوم "إيجور" لحياة أفضل في الانضمام لصفوف الفيلق الأجنبي الفرنسي، أو الوحدات العسكرية التي يقوم فيها الأجانب بخدمة القوات المسلحة الفرنسية. إنه على استعداد للمخاطرة بحياته رافعًا علمهم ذا الألوان الثلاثة. تلقى زميلي مؤخرًا ردًّا على طلبه من الدولة التي تشتهر بأطباقها المترفة، وقُبُلاتها، وخطاباتها.. قالوا فيه إن لديهم في الوقت الراهن عددًا كبيرًا من الروس في الفيلق، وإنهم مضطرون للاكتفاء بهم حاليًا.. ما يعني أنه لا يوجد مكان لـ"إيجور" هناك، أي إنهم قاموا بوضعه على قوائم الانتظار. واقع الأمر، أن الوضع ليس في صالحه، فقد بدأت السلطات بالنظر في أوراقه ودراسة ملفه، والوقت يمضي سريعًا دون حدوث أي تغيير. أتوقع أن يقوم "إيجور"، عمّا قريب برحلة ما.. إما إلى أدغال "جيانا" في أمريكا الجنوبية، حيث يمكنه التدرب على أعمال الجزارة؛ أو عائدًا إلى أوكرانيا على متن طائرة، يصحبه إليها عدد من رجال الشرطة. هناك دائمًا الاحتمال البديهي الثالث.. بداخل حاوية بضائع متجهة إلى إنجلترا.

"إيجور" لا يقول شيئًا. إنه لا يتكلم مع أحد مطلقًا. هذا ما يخيفني منه. إنه يمتلئ بالغيظ، وهذا أمر واضح للجميع، لكنه يفضل التزام الصمت. ليته يبوح بما يزعجه، ليس لأنني مهتم بمشاعره، فلديّ ما يكفيني من مشكلات وأحزان، لكنني أخشى أن ينفجر غضبه يومًا، أو أن يصاب بلوثة عقلية، فيقوم بالهجوم عليّ. لن أتحمَّل أكثر من ضربتين من قبضتيه القويتين. سأموت على الفور، لا شك في ذلك. عليكم أن تروه، لتفهموا ما أعني. كل ما فيه شديد الضخامة؛ صدره العريض، ورأسه، وآثار الجروح العديدة على جبينه وحاجبيه، والتي تمت خياطتها بشكل سيئ، حتى صارت أجفانه العلوية أشبه بقطعة قماش مطرزة! وجه "إيجور"، بملامحه المتميزة، هو حلم كل مصور فوتوغرافي، ولولا أن المهربين أصروا على تحطيم الكاميرا الخاصة بي في طريقي إلى هنا، خوفًا من أن أسجِّل بعدستي ما يقومون به، لما ترددت في التقاط "بورتريه" لتلك القسمات الخاصة.

في الفترة الأخيرة، تزايد إحساسه بالتوتر وتزايد معه شعوري بالخوف منه. لم أعد أجرؤ على إغماض عينَيّ ليلًا، إلا بعد أن أتأكد من أنه استسلم لنوم عميق. صرتُ أضع أدوات المائدة الخاصة بي تحت وسادتي، رغم يقيني بأنها لن تحميني منه. أعني أنني إن حاولت الدفاع عن نفسي بغرز

شوكة الطعام في صدره، فإن أطرافها الحادة سوف تنثني بسبب عضلاته فائقة القوة. لو أن رصاصة انطلقت تجاهه، فإنها سترتطم بجسده المتين، ثم تسقط أرضًا!

لا أحد فينا يعرف سبب طلبه للجوء. يؤكد البعض أن سجّله لدى الشرطة الأوكرانية نظيف تمامًا، فيما يؤكد آخرون بأنه هارب من مطاردات المافيا الروسية له. على كل حال، يكفي أننا نعلم سبب وجودنا هنا، وكل واحد منا على استعداد لسرد قصته، متى ما طُلِب منه ذلك، ولن نفهم أبدًا قراراتهم بترحيلنا وإعادتنا إلى الجحيم الذي هربنا منه. يقولون إن قارتهم قد امتلأت، وإنه لا مكان فيها لقادمين جدد. وهل قاموا باستئذاننا قبل أن يعملوا على إغراقنا بثقافتهم؟

حين يتحدث "إيجور" معي ـ وذلك يحدث مرة واحدة في الأسبوع، ولمدة لا تزيد على عشر دقائق بأي حال من الأحوال ـ فإنه يحرص على أن يتم ذلك بالفرنسية. والحقيقة أنها أسوأ بكثير من فرنسيتي الرديئة أصلًا! يقوم في نهاية الأمر بالاستعانة بقاموس صغير الحجم، ليُفهمني ما يريد قوله.

الكائن الوحيد الذي يمكنه تحويل "إيجور" من روبوت آلي إلى إنسان لبعض الوقت، هو "آنا". إنها روسية حسناء، ذات مؤخرة فاتنة، وجسد فائق الروعة، مغطى على الدوام ببدلة رياضية من "أديداس". في الساعات الأولى التي تلت وصولها، سألتها إن كانت تتحدث الإنجليزية. أجابت:

- يعني.. ليس كثيرًا.. لكنني سريعة التعلم و"عاهرة" جدًا.

حسنـًا.. لعلكم فهمتم أنها تقصد "ماهرة" بالطبع، لكنها لم تكن مخطئة تمامًا في وصف نفسها! والمتوقع أنها ستحصل على رفض لطلبها باللجوء ثلاث مرات متتالية، وبعدها ستختفي لفترة، ثم تبدأ في الظهور وهي متدثرة بمعطف من الفراء، وتنتعل حذاء بكعب طويل، وتصاحب رجالًا بالغي الثراء والتفاهة. كيف إذًا ستتمكن من مواصلة حياتها؟ لديها كل المواصفات المطلوبة، فما الذي يمنعها أساسـًا؟ ولتضييع الوقت، والقضاء على الضجر، ولصقل مواهبها أيضًا، صارت "آنا" تتردد على مبنى 4 لتقوم بممارسة الجنس الفموي مع نزلائه، مقابل عشر سجائر في المرة. تقوم بتدخين واحدة فور أن تتمضمض لتطرد الطعم الكريه من فمها.

يبدأ "إيجور" يومه منكبًا على كتبه الفرنسية. إنها لغة معقدة بالنسبة لشخص مثله، لكنه يواصل دراستها بدأب مستمر، لثلاث ساعات

متواصلة. إن مصيره متوقف عليها. بعد أن ينتهي من استذكار العديد من المفردات، يلعب الكوتشينة لبعض الوقت، إلى تمام الساعة الثانية عشرة. بعدها يتناول ساندويتش الغداء لوقت يقترب من النصف ساعة. الجميع يفعل ذلك. نتناول طعامنا ببطء شديد، ونحاول أن نبقي القضمة في فمنا لأطول وقت ممكن، لأننا لا نجد ما نفعله بقية ساعات اليوم.

بعد الغداء، يقرأ "إيجور" نسخته من صحيفة روسية أسبوعية، تحمل اسم "إم. زي". إنها جريدة رائعة. أشعر بالغيرة لأننا لا نملك إصدارًا مثلها بلغتي الأم. إنها تمتلئ بالصور - تميل إلى القبح في الواقع، لكنها لافتة للنظر والاهتمام -وبها إعلانات عن مشروبات كحولية قوية تساعدك على نسيان كل ما يزعجك. وبها العديد من الألغاز المستعصية على الحل، والتي تضطرك لانتظار العدد الجديد لمعرفة إجاباتها الصحيحة. تضم صفحاتها أيضًا عمودًا لشرح الحركات المختلفة للعبة الشطرنج، وآخر يكشف للقارئ خبايا حركات الدومينو، وصفحة كاملة مخصصة للكلمات المتقاطعة، ولألعاب المهارات اللغوية. هناك قسم للنكات، يتجاهله "إيجور" تمامًا، بطبيعة الحال. أمَا آخر صفحتين، فإنهما مخصصتان بالكامل لعرض صور نساء عاريات. أجساد مغرية جدًا، يزين الوشم بعضها. بعد أن ينتهي "إيجور" من حل عدد من الألعاب اللغوية،

يستلقي على فراشه، ويحملق في السقف طويلًا، إلى أن تصبح الساعة السادسة مساءً.

في ذلك الوقت، يتوجه "إيجور" إلى نادي الملاكمة، الذي يقع في البلدة القريبة. كانت إدارة النادي قد عرضت عليه أن يتدرب فيه بشكل مجاني. أشعر بالشفقة على الشخص الذي يتمرن معه في الحلبة. لا بد أن "إيجور" ينفِّس عن غضبه وإحباطاته بلكمات قوية لذلك المسكين؛ ويبدو أن المسؤولين هناك فطنوا للأمر، ولذلك لا يضعون أمامه إلا السيدات العجائز.

بدأ "إيجور" في التفكير بحل محتمل لمشكلته، وهو طلب اللجوء كنجم رياضي. إن منح الجنسية للرياضيين المتميزين أمر متعارف عليه، وأسهل بكثير من أنواع اللجوء الأخرى.

حين يعود من التمرين، تكون رائحته كريهة جدًا وغير محتملة. إنها مزيجٌ من العرق والخوف الشديد. عند وصوله، يكون عشاؤه قد برد. يتناوله بعدم اهتمام، وبوجه يخلو من أي تعبير.

الأكل لا طعم له، بتاتًا، وأغلب الظن أن تلك الساندويتشات كانت تحتوي بعض الدجاج، كما أظن.

يصعد "إيجور" إلى سريره العلوي، حاملًا معه الصفحتين الأخيرتين من جريدته. ذلك أمر لا يزعجني على الإطلاق، بل على العكس. أستمتع بسماع صرير الفراش فوقي، وتعجبني فكرة تخلصه من بعض مشاعره المكبوتة قبل النوم. أنتظر إلى أن تهدأ حركته، وتتوقف خشخشة أوراق الجريدة، وتبدأ أنفاسه في الانتظام، ثم يستسلم لنوم عميق، قبل أن أجرؤ على إغماض عينيّ وبدء رحلتي في عالم الأحلام التي أحمل فيها دومًا كاميرا بفيلم ملوّن.

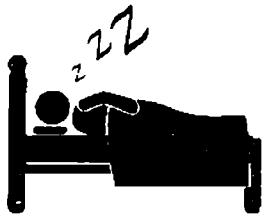

## السعادة لا تمحو الأحزان العميقة

كل قصة حب صادقة تنتهي بالانتحار. سيطرت عليّ هذه الفكرة عندما دسّت "ليديا" جسدها تحت أغطية فراشي. تسللها إلى الحجرة دليلٌ على إهمالي في إقفال الباب، وهو أمر لن يتسامح فيه "إيجور" المذعور والمرتاب على الدوام. أخشى مجرد التفكير في ردّ فعله المحتمل إذا عرف أن "ليديا" تستلقي إلى جواري. كيف أضمن بأنها لن تصدر صوتًا؟ ماذا لو

بدأ سرير المستشفيات المكسور الذي أرقد عليه، في الصرير؟ ألن يستيقظ من نومه العميق؟

أضع إصبعي على فمها، محذرًا، كي تلتزم الصمت.

تنفرج شفتاها قليلًا، وتضع إصبعي داخل فمها. لم أفعل شيئًا مماثلًا منذ زمن طويل. أُدرك فجأة بأنني وحيد. أكاد أبكي من فرط إحساسي بالوحدة. تضع بدورها إصبعها على فمي. سنحرص على الهدوء التام. سوف نبقى صامتين تمامًا.

يحمل ملف "ليديا" الأحرف اللاتينية الثلاثة AMA للإشارة إلى إنها قاصر وبمفردها هنا. إنها القاصر رقم 15 التي تصل إلى هذا المبنى عقب خوض رحلة طويلة مليئة بالمصاعب، دون أهل أو أصدقاء. جميع معارفنا باتوا بعيدين، وعلينا أن نتقبل هذا البُعد إلى الأبد. الصغار الذين يبتعدون عن القطيع، يكبرون قبل أوانهم.

في بعض الأحيان، ألمح وجهًا جديدًا حزين الملامح في قاعة الطعام. شخصٌ آخر تم العثور عليه في مؤخرة سيَّارة نقل، أخذ انطباعاته الأولى عن هذا البلد، من مرافق الخدمات على الطرق السريعة. مع تزايد أعداد الوجوه البائسة المتدفقة على المركز، قلّ تأثري بها مرة تلو الأخرى.. إلى أن

انعدم تعاطفي معهم تمامًا. لكنني أتذكر جيدًا لحظة وصول "ليديا". عرفت فور رؤيتها بأنني لن أنساها مطلقًا. كنت أقف بجوار بوابة الدخول، وأنا أدخن وأحاول التوصل إلى شيء أفكر فيه دون أن يصيبني الخوف أو القلق. أنظر إلى العالم الخارجي الممتد وراء الأسوار الشائكة للمركز، وأتمنى أن أنضم إليه سريعًا. لا شيء يحدث. لا شيء هنا يقترب مما كنت أتوقعه. الأوقات السيئة تمرّ ببطء لا يمكن وصفه. أمضي يومي في لف سجائري بتمهل، وانتظار موعد الوجبة التالية. أعاني من خلخلة في أحد أسناني.. أشعر بنوع من الحماس والبهجة وأنا أحركه بلساني. كنت غائبًا في عالمي الخاص، أحاول التغلب على شعوري بالسأم، حين دخلت سيارة شرطة عبر البوابة. نزل منها ضابطان وفتاة، واتجهوا إلى مكاتب الإدارة. تسارعت خطوات الوقت قليلًا.

لماذا ظننت أنها تحمل آلة كمان في حقائبها؟ كنت أتمنى، في كل مرة يصل فيها لاجئ جديد للمركز، أن تكون معه آلة موسيقية من أي نوع؛ هارمونيكا ربما، أو حتى صفَّارة معدنية! بل إن أمنياتي تتضاءل أحيانًا لدرجة أن أحلم بالعثور على وتر مقطوع من جيتار لا أكثر. كنت في حاجة ماسّة إلى الموسيقى. أنغام حقيقية.. حية.. وليست تلك المنبعثة من أشرطة أجهزة التسجيل، بصوتها القديم.. المتعَب.. المشوّه. لكن الشخص المضطر

إلى تسلق قمة جبل، والعبور منها إلى القمة التي تليها، متخطيـًا شتى أنواع المتاعب والمخاطر، ليتمكن في النهاية من حشر جسمه بين صناديق الطماطم، أو الاستلقاء بين أجساد خنازير، في سيارة نقل تعبر بها إلى مسلخ في دولة أخرى.. ويغطي نفسه بروث تلك الحيوانات وفضلاتها، حتى لا يفطن حرس الحدود إلى وجوده.. لن يفكر أبدًا في أخذ آلته الموسيقية معه، سيتركها في وطنه، ويكتفي بحمل نسخة من الإنجيل أو القرآن.. علها تمدّ قلبه وروحه بشيء من السكينة؛ وقد يصطحب معه صورة للأشخاص الذين فارقهم.. مع أن الذكريات التي تجلبها معك إلى هنا، تعدّ نوعـًا من الرفاهية.

القاصرات اللواتي ينجحن في الوصول بسلام محظوظات للغاية. لن يشغل بالهن جلب آلة كمان، أو زوج من أحذيتهن الأنيقة.

لا أرغب أبدًا في معرفة الثمن الذي دفعته لموظفي الجمارك على الحدود؛ ولا أود أن أعلم الكيفية التي قامت برشوتهم بها. تلك مشاهدٌ مألوفة أعرفها جيدًا.. المسؤولون يفتحون بنطلوناتهم، والبنت تفتح فمها لهم.

لم أتبادل كلمة واحدة مع "ليديا". توقفتُ منذ فترة عن الترحيب بالقادمين الجدد، والابتسام لهم، وتعريفهم بنفسي. لم أعد أسأل الناس عن

جنسياتهم، ولا عن الأسباب التي دفعتهم للهروب من بلدانهم، فقد لاحظت أن كل واحد منّا يحاول أن يتفوق على الآخرين في مدى بؤسه وشقائه.. فإذا قال "أ" أن العساكر في دولته قاموا بضربه وكسر ساقيه، يجيبه "ب" ـ من فوره ـ بأن عساكر بلده كسروا له ثلاثة أرجل! وهكذا.. ونبدأ في الشعور بالتوتر وفقدان الأمل، فإذا كان صاحب الثلاثة أرجل المحطمة، قد فشل في الحصول على اللجوء، فهل سينالها من هو أحسن منه حالًا؟ نتبارى بعدها في التخمينات والتكهنات ونحن نحاول توقُّع ما تحمله الأيام القادمة لنا. الواقع أن الحكومات الأوروبية تهتم فقط بأصحاب العقول المتميزة. أعني أنها تتهافت على الأذكياء، وتنبذ ذوي الأطراف المكسورة. هذه النقطة تحديدًا، تصيبني بالإحباط.. فمن الذي يرغب في عقل كالذي أملكه؟ إنه مليء بالتفاهات والقذارات، ولا شيء أكثر من ذلك.

أكتفي بالوقوف أمام المدفأة المعدنية، مع غيري من اللاجئين متعبين من الإجراءات، وخطابات الرفض، حتى فقدنا قدرتنا على الترحيب بزملاء جدد. ندخن وننظر عبر الشباك الكبير إلى الضباب المتجمد على أركان النوافذ، ووقع الجليد على الأرض.. إلى أن يظهر ساعي البريد حاملًا خطابات تبدأ بعبارة "السيد فلان/المحترم".. وتنتهي بعبارات منمقة،

بالغة التعقيد، يمكن تلخيص معناها الحقيقي في أن وجودنا بينهم لا يتماشى مع تقاليد الغرب، وأننا سنلطِّخ التاريخ العريق لهذه القارة.

لست مهتمـًا بتبادل الشكاوى مع زملائي، والتذمر لهم من أوضاعي وظروفي الحياتية التي دفعتني إلى المجيء إلى هنا.. ماذا أقول لهم؟ إنني مذنب لأنني وُلدت في المكان الخطأ؟ إن رأس شقيقتي هو الذي اعترض طريق رصاصة المجرمين؟ إنني آسف على كل شيء؟

لا أرغب في أن يسمع القادمون الجدد شيئًا من ذلك. أريدهم أن يستمتعوا بأحلامهم، وأن يظنوا أنهم قادرون على تحقيقها.. حتى لو عاشوا في تلك الغفلة لبضعة أيام فقط. كلَّا، أنا أكذب. الحقيقة، إنني لم أعد أريد شيئًا، ولست مهتمًا بشيء. أهتم بـ"ليديا" فقط، ربما.

أتابع ساقيها حين تمشي. أتمعن في فمها وهي تمضغ الطعام. أنظر إلى آثار أقدامها المبللة على الأرض، عندما تخرج من الحمام. ها هي مستلقية الآن إلى جواري. تريد أصابعي أن تلمسها، لتتأكد من أنها بجانبي فعلًا. لا أدري إن كانت معتادة على التسلل إلى أسرّة الرجال ليلًا. لا يهم. المهم أنها معي الآن. أتشمم جسدها. أضع أنفي في إبطها. لا شيء. للجميع هنا الرائحة نفسها تقريبًا، فكلنا نستخدم الصابون الرديء نفسه، الذي يوزعونه علينا بشكل دوري،

ونغسل شعورنا بشامبو التفاح نفسه. أغرز أنفي في جسدها بقوة أكبر. فارق السن بيننا يجعلني الشخص الذي يغتصب شقيقته الصغرى، فتنهي عذابها بالانتحار بمسدس تضعه في فمها. أجد صعوبة في طرد هذه الصورة من مخيلتي. بدأت هي أيضـًا تتشممني. كلبان، ذكر وأنثى، يتوددان إلى بعضهما. ابقَ هنا. ابقَ معي.. إلى أن ينزل المطر في قـُـرانا العطشى. سنحافظ على صمتنا. سنصبح الصمت نفسه، معـًا. ابقَ هنا.

## شطرنج المحترفين

يصيح "شوكت"، مهددًا في غضب، بأنه سوف يفجّر المركز، ويقتل جميع الموظفين. يتلطف ثلاثة من الشيشانيين ويتكرمون بالسيطرة عليه بكل ما لديهم من قوة. تنفر العروق في جبينه، وتنتفخ، حتى تصبح شبيهة بقضبان السكك الحديدية. الشخص الكوسوفي الذي ضربه "شوكت" منذ قليل لينفس عن غضبه لا يزال متكومـًا على الأرض، كثور مذبوح تسيل منه الدماء. فلت الجنرال "توماتوسكي" من ضربة قاضية

بأعجوبة. يُشَار إلى هذا الموقف هنا بـــ"وضع متأزم". تلقى موظفو المركز ـ الذين يحظون جميعـًا بمحبتنا، عدا ذاك الكريه في مركز الأنشطة ـ دورات متخصصة في كيفية السيطرة على مثل هذه الأمور. لكنهم لم يدرسوا كيفية السيطرة على موقف عنيف كهذا؛ إذ انحصر تدريبهم في كيفية حل أي نزاع بسيط بين شخصين متخاصمين، حيث يقوم أحد المشاركين في التدريب بدور رجل غاضب، ويصرخ في وجه زميله: "أيها القذر!"، ثم يقوم بقية المتدربين بتهدئة الطرفين متبعين توجيهات مدربيهم؛ وبدلًا من استخدام أسلحة حادة في التدريبات، وتتم الاستعاضة عنها خلال التدريب بسكاكين بلاستيكية.

يجب أن نشكر الظروف التي جعلت الملل الشديد، والشعور بالفراغ دافـعـًا للشيشان لأن يتدخلوا للسيطرة على الموقف. ياه! أخيرًا! تسلية ظريفة! هيا لنجرب معه الـ"كيك بوكسينج"! هجوم! نعلن الآن عن هزيمة "شوكت" المدوية!

كان "شوكت" قد خاطر بحياته وحياة زوجته، ووضع نفسه وإيَّاها تحت رحمة عدد من المهربين المخادعين. قطعا معـًا آلاف الأميال، واضطرا إلى الإختباء داخل بالوعات الصرف الصحي، وبين قطعان من الخنازير

داخل سيَّارات نقل، وقاما بالزحف تحت الأسلاك الشائكة المكهربة، إلى أن انتهت رحلتهما الشاقة أخيرًا بالوصول إلى أرض الأحلام. عُثِر عليهما في حالة إعياء بالغة، في أحد مواقف السيارات العمومية، وتم نقلهما إلى المركز. بطبيعة الحال لا تثير قصته اهتمام أو إعجاب أحد، فالكل هنا تعرّض لظروف مماثلة، بعضها أشد قسوة.

على كل حال، ما حصل هو أن زوجة "شوكت" اختفت فجأة. رحلت. ذهبت. بمفردها. دونه. هاهاها. كانت تشعر بالغضب منه، فطلبت من الإدارة ـ دون علمه ـ أن يوافقوا على نقلها إلى مركز آخر، وهو ما حدث. نجحت في التخلص من زوجها. يحدث ذلك أحيانـًا. تلاحقك زوجتك بإلحاحها المتواصل، حتى تشعر بأن رأسك يوشك على الانفجار؛ وحتى تنجح في إسكاتها، تبادر بترتيب حقيبة السفر، وتأخذها معك كي تشاركك بناء حياة أفضل، ومستقبل أكثر إشراقـًا. تصلان إلى وجهتكما، فتغادرك بأسرع ما يمكن وتهرب منك.

لو أنها فعلت ذلك في بلدها، لتعرضت للرجم، على أقل تقدير.

تخاطر بحياتك عبر الحدود، وتتخطى كل العقبات من أجل إرضائها، لتتركك وحيدًا في أرض غريبة.

يؤمن "شوكت" بأن المرأة كائن لا قيمة له على الإطلاق.. لا ترقى حتى لمستوى فضلاته. رأيناه يضربها بعنف أكثر من مرة. الشجار بين الأزواج، وتبادل الصياح بصوت مرتفع من الأمور اليومية المعتادة هنا، والتي تحدث في كل مكان؛ لكنني لم أرَ في حياتي رجلًا يضرب زوجته بتلك الوحشية من قبل. الشهر الماضي، كسر "شوكت" معصم زوجته لاشتراكها في دورة كمبيوتر. على المرأة ألا تسعى لتعليم وتثقيف نفسها.. عليها أن تبقى جاهلة ومتخلفة، فهكذا خـُلِقت، وهكذا هجم "شوكت" عليها بقوة مقاتل ياباني محترف، محطمـًا عظام المرأة المسكينة. لم نتدخل بتاتـًا، لا لإيقافه ولا لتشجيعه، فكل منا مثقل بهمومه الشخصية العديدة. عندما تأتيها الدورة الشهرية، يطلب "شوكت" من الإدارة أن يجدوا له غرفة أخرى ينام فيها. في بعض الأحيان، كان ينام خارج حجرته في البرد القارس غير المُحتَمَل، حتى لا يضطر إلى اقتسام فراشه مع تلك البهيمة النجسة.

تصرفاته المشينة معها، هي التي تجعلنا نشمت فيه الآن، ونردد بأن تلك الـ"بهيمة" أثبتت ذكاءها وقدرتها على التخلص من شخص بغيض مثله، والانتقال إلى مركز آخر. أمَّا أكثر ما أسعدنا، فهو أن ذلك المركز يقع على الساحل، ومزود بحمَّام سباحة، وغرفة منفصلة لكل نزيل لا يشاركه

فيها أحد، وفي كل منها جهاز تليفزيون. بإمكانها الآن أن تستمتع بمشاهدة ما يعجبها على تلك الشاشة، حتى لو كان فيلمـًا إباحيـًا مثلًا!

تخيَّلوا الإحساس بالقهر الذي سيشعر به "شوكت" حين يحصل على رفض لطلبه باللجوء، بينما تنال هي موافقة سريعة وفورية!

عمومـًا، لا أدري كيف نجحوا في تهدئته في نهاية الأمر. ربما قاموا بغزر حقنة مورفين في مؤخرته!

"شوكت" مكروه من الجميع، ولا علاقة للدين بالأمر. نشعر بالسعادة لما حدث له. ليتنا نستطيع إقامة حفل للاحتفاء بهزيمته. يطوف في المكان بخطوات متثاقلة، وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات الندم والأسى، والتوَت شفتاه كأنما يوشك على البكاء. لو ربطناه عاريًا إلى عمود، وسترنا عورته بفوطة، وغرزنا في جسده سهمـًا لتحوَّل من نوره إلى القديس "سيباستيان" بهذه الملامح الحزينة! ربما كان من الأجدر إذًا أن يقدِّم طلبـًا باللجوء إلى الفاتيكان!

لا أدري لماذا فعلت ذلك، لكنني قررت أن ألعب معه الشطرنج.. رغم خسته، إلا أنَّه لا يزالُ إنسانـًا، وينبغي أن نشغله بأي شيء حتى لا يواصل

التفكير في زوجته. يطلب أن نضع رهانـًا، فنتفق على خمس سجائر يقدمها الخاسر للفائز.

كان بإمكاني انتزاع السجائر الخمس منه، من خلال خمس عشرة حركة بالضبط. إنه في مأزق، عقب تحريكي لاثنين من الفرسان. إنها الافتتاحية الكلاسيكية المعتادة للعبة. يمكنني هزيمته بمنتهى السهولة، لكنني أقرر التريث.

الحقيقة أنني لا أصدق أبدًا أن "شوكت" لاجئ سياسي. لعله كذلك بالفعل، من يدري؟ الأوضاع السياسية في بلده متردية للغاية، على أي حال. ربما لو عاد إلى بلاده، فلن تتردد الحكومة في قتله بأي وسيلة؛ لكن طريقته في لعب الشطرنج أثبتت لي بمنتهى الوضوح أنه يفتقر إلى أي حنكة سياسية. إنه لا يعرف، على الإطلاق، كيف يحرك قطعه. أذكِّر نفسي:

- عليّ أن أصبر. لقد تعرض المسكين للهجر من زوجته. يجب ألا أحطمه.

أمنحه أكثر من ثلاث فرص للفوز، وأتيح له تحريك ما شاء من قطع، لكنه شديد الغباء، ويواصل اللعب بطريقة عشوائية. لا أريد أن أستولي على سجائره. لن يتبقى له بعدها سوى أربع. لا بد أنه بحاجة للتدخين عقب ما

تعرض له، ولكن ماذا عليّ أن أفعل؟ لقد مرت ساعة كاملة دون أي تقدم.أحرّك الفيل وأهتف:

- كش ملك يا "شوكت"!

يحملق في القطع أمامه بغيظ، وقد اتسعت فتحتا أنفه، وبدأت شفتاه في الارتعاش باضطراب واضح. تملكني الندم لإصراري على إخراج هذا المعتوه من غرفته. إنه لا يستحق صداقتي. يقذف باللعبة بعيدًا، فتتطاير القطع في كل مكان. يوجه لي اتهاماته بأنني غشاش، وأنني قمت بتبديل مكان القطع دون أن يلاحظ.

لا أحصل على أي سيجارة.

أن تخلف وعدك لي هو من أكثر الأشياء التي تزعجني في الحياة يا صديقي. لا يمكنني تقبل الأمر بتاتـًا. يجب أن تلتزم بوعدك، مهما كلَّفـك الأمر. أشعر برغبة قوية في ردّ الإهانة له، وجرح مشاعره. إنه يستحق ذلك. أتَلَفتُ حولي، فألمح ثلاثة من الشيشان يقفون على مقربة منا. هل أملك الجرأة اللازمة لأقول له ما أفكر فيه؟ كلَّا.. بل نعم، لمَ لا؟ سيتدخل هؤلاء الثلاثة لحمايتي في كل الأحوال. حسنـًا..

- على فكرة، لقد استمتعت بممارسة الجنس مع زوجتك الأسبوع الماضي.

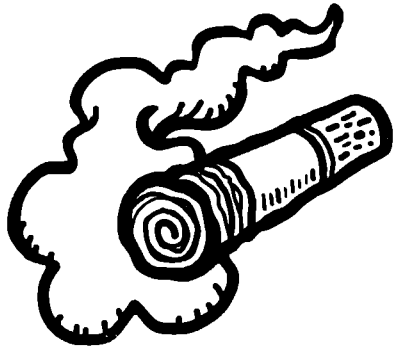

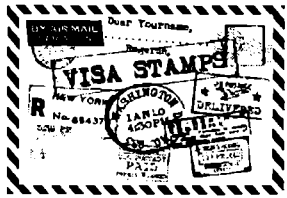


# "روكي"

## الجزء الثاني

وصل خطاب بالبريد المسجّل إلى "إيجور". الظرف الذي يحمل الكثير من الطوابع، ملصقٌ بإحكام. يضعه على صحيفته الأسبوعية، فيغطي بذلك أكثر الصور جاذبية في الجريدة. نعرف المرسِل جيدًا. إنها الرسالة الوحيدة التي نتوقع وصولها طوال وجودنا هنا بعد أشهر طويلة من السأم والانتظار، يشعر "إيجور" بقلق وخوف يمنعانه من فتح الظرف.

يقرر أن يقرأها لاحـقـًا. سوف يتناول طعامه أولًا. تصرُّف عقلاني. الأكل هنا عديم الطعم، وأن تتناوله عقب خبر سيئ هو شيء غير محتمل.

تتكون وجبتنا اليوم من الخبز، وقهوة خفيفة جدًا أقرب للماء. أعتقد أنها لا تحوي أي كافيين أصلًا.. حتى لا تثيرنا. أكاد أجزم بأنهم يضيفون مادة الـ"بروم" الكيميائية إلى الماء الذي نستخدمه. إنها تقضي على أي شهوة جنسية.. أنا أعرف ما أقول.. فلم أعد أستيقظ منتصبـًا. لا بد أن هناك سببًا عضويًا لذلك. الأمر ليس نفسيـًا على الإطلاق.

ينتشر خبر وصول خطاب باسم "إيجور" في المكان. ترتفع الروح المعنوية لدى الجميع. ما زال هناك من يتذكرنا، ويدرك أننا نقيم في مركز اللجوء ببروكسل. مر على وجود البعض هنا نحو عام ونصف، أو أكثر قليلًا، حتى باتوا يظنون أن ملفاتهم قد فُقِدت للأبد. الواضح أن بلجيكا لا تعترف بمبدأ السرعة. على أي حال، توالت زيارات الناس لحجرتنا، وهم يسألون بلهفة:

- ما الأخبار؟

لكن "إيجور" يستمر في وضع الخطاب أمامه، دون أن يفتحه.

تمر عدة ساعات، وتوشك فترة العصر على الانتهاء، حين يترك "إيجور" فراشه الذي ظل مستلقيـًا عليه يحدّق في السقف. يقبض على سكين، ويدس طرف نصلها الحاد تحت الجزء الملصق من الظرف.. ويفتحه. كان يفكر في شخص معين وهو يفعل ذلك. أدركت ذلك من طريقته، وشممته في رائحة الخوف التي انبعثت منه.

يجلس ثابتـًا في مكانه، ممسكـًا بالرسالة. يقبض على مصيره بين أطراف أصابعه، دون أن يفهم شيئـًا.. فقد صاغ الملاعين مستقبله باللغة الـهولندية!

إن كنتَ محظوظـًا، فإنهم ـ هنا في بروكسل ـ يمنحونك نحو ربع ساعة كاملة تشرح فيها سبب اضطرارك لمغادرة بلدك بتلك الطريقة.. خمس عشرة دقيقة لتقص عليهم كيف تعرضت لضرب مبرح، أو لماذا أحرقوا بيتك واغتصبوا بناتك، أو كيف هاجمك اللصوص وقاموا بسرقة ممتلكاتك وضرب أمك وقتل أبيك.. وبعد أشهر طويلة تقضيها في العبث بأصابع يديك وقدميك، بمزيج من الضجر والتوتر.. يصلك خطاب منهم. ورقة واحدة فقط. أسطر معدودة، متبوعة بعدد ضخم من الأسماء والتوقيعات.

تخبرك افتتاحية الرسالة بأشياء تعرفها.. كأن يؤكدوا أنه لم يكن هناك طرف ثالث أثناء اللقاء.. لا مترجِم ولا محامي؛ ويبلغونك باحترامهم لك.. (ليس كثيرًا، كما يبدو، ولكنه احترام على أي حال).

مكتبة
t.me/t_pdf

**السيد/...**

**بناءً على المعلومات الواردة في ملفكم، نود إبلاغكم بقرار نائب وزير الداخلية، والقاضي برفض بقائكم في الأراضي البلجيكية. واستنادًا إلى المادة 52 من قانون الأجانب، نحيطكم علمًا بأن الطلب المُقدَّم من جهتكم لا يتماشى مع الاتفاقات الدولية الخاصة بقبول اللجوء.**

**سوف يتم اصطحابكم إلى حدود الدولة التي خرجتم منها، والتي صرّحتم بأن حياتكم وسلامتكم وحريتكم مهددة فيها.**

**وبالعودة إلى القرار الصادر من وزير الداخلية، فإنكم مطالبون بمغادرة الأراضي البلجيكية، خلال خمسة أيام من تاريخ تسلمكم لهذا الإعلان.**

**مرسوم ملكي، صادر في 19 مايو 1993: المادة رقم 17، الجزء 2، الفقرة 2.**

هذه الخطابات الرسمية، المُعنوَنة بـ"قرار رفض الإقامة"، تُكتَب بالهولندية.. اللغة التي ندرسها هنا، رُغم عدم تأكدنا من أنها ستصبح

الوسيلة التي سنتواصل بها مع من حولنا في يوم من الأيام. اللغة التي نُقبِل على دراستها، لا لشيء إلا لمحاربة الملل.

ولحسن حظه، فإن القوانين البلجيكية العجيبة، والتي أمرته بمغادرة البلاد خلال خمسة أيام.. هي ذاتها التي منحته حق البقاء لشهر كامل، يقدم خلاله التماسًا بإعادة النظر في ملفه ووضعه!

درجة الحرارة في الخارج هي ستة تحت الصفر. تقطع إذاعة الـ"بي بي سي" مقطوعة موسيقية على آلة البيانو، وتعلن في خبر عاجل العثور على حاوية بضائع في "تيفولي" بإيطاليا، تضم عددًا من الرومانيين، الذين اختبأوا خلف شحنات من السيراميك؛ ونظرًا للبرودة الشديد.. فقد لقوا حتفهم جميعـًا.

رحلة عبثية.. بدأت وانتهت دون أن يحققوا شيئـًا.

يؤكد الناجون من حوادث الانهيارات الثلجية، أن الإحساس الذي يعتري الإنسان عندما يكون موشكًا على الموت في تلك الأجواء فائقة البرودة، لا يختلف عن تعاطيه لكميات هائلة من الحشيش أو المخدرات؛ ما يعني أن وفاة أولئك الرومانيين لم تكن مؤلمة، وأنهم استمتعوا بلحظاتهم الأخيرة أكثر مما نتخيل.

كل حوار يدور هنا، يحتاج إلى عدد من القواميس لإتمامه. هذا الخطاب الرسمي أيضـًا، تطلب الاستعانة بالقواميس لفهم كلماته. ساعدت "إيجور" في فك طلاسمه، وتوقفنا أمام بعض العبارات المعقدة، وكتبناها على ورق تواليت، للعودة إليها لاحقـًا.

تظهر لنا مفردات مثل "مهزوم" و"ضعيف الإرادة" خلال بحثنا في القاموس عن كلمات أخرى.. ولسبب ما، يعجب بها "إيجور" فيظل يرددها بالفرنسية لبعض الوقت. يبدو أنه لم يستوعب بعد مدى أهمية الخطاب الذي وصله اليوم.

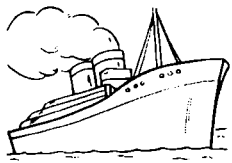

# شهْـر مثيـرٌ للسخط

أخطأ الشاعر "تي. إس. إيليوت" حين قال في قصيدته الشهيرة بإن أبريل هو أكثر الشهور قسوةً. ذلك غير صحيح.. ديسمبر هو أكثرها قسوةً. الجو فيه غير ملائم للاختباء داخل حاويات البضائع.. أمَّا ذوو الميول الانتحارية الذين يصممون على التسلل إلى حاويات البواخر في درجات الحرارة المتدنية تلك، فإن مصيرهم معروف.. التجمد حتى الموت بين صناديق الطماطم أو السيراميك. لقد فقد السود خطواتهم الخفيفة،

وحركاتهم الرشيقة المتميزة بسبب هذا البرد القارس؛ لم يعد بالإمكان تخيلهم وهم يحملون أجهزة التسجيل الكبيرة على أكتافهم، ويتمايلون على وقع موسيقاها الصاخبة.

أتوقع أن يهجم أفراد من الشرطة الفيدرالية على الحجرة في أي لحظة لإلقاء القبض على زميلي، كما لو كان عضوًا في عصابة خطيرة! أعلم أنه غاضٌب بشدّة، وإن كان يحاول عدم إظهار ذلك. إنه يستلقي على فراشه بهدوء كالمعتاد. لديّ إحساس، مع ذلك، بأنه سينهال عليّ بالضرب واللكمات القوية.. من باب الانتقام ربما، أو للتنفيس عن غضبه المتراكم، أو دون سبب على الإطلاق.

على كل حال، كلانا مرهق للغاية. لم ننل قسطـًا وافيـًا من النوم منذ ما يزيد على الأسبوع. هناك ضجيج وفوضى في الممرات التي تفصل الغرف كل ليلة بلا انقطاع.. إما بسبب الخلافات العائلية وما يصاحبها من صياح متبادل؛ أو أن "آنـا" تحاول سد العجز الذي تعاني منه في مخزون سجائرها، عبر إمتاع زملائها الرجال بوسائلها الخاصة؛ أو أنهم الأطفال الرضّع الملاعين.. الذين يعانون جوعـًا ليليـًا، وتعجز صدور أمهاتهم البائسات، التي جففها التوتر وسوء التغذية، عن إدرار القليل من اللبن.

مع إحساسي الدائم بالإرهاق المستمر، بتّ لا أتمنى شيئًا أكثر من النوم.. سأكون شاكرًا وممتنًا لو استطعت أن أرقد لخمس أو ست ساعات متواصلة؛ لكن حتى دون الشجارات الأسرية، وأصوات الجنس الصاخب، وبكاء الصغار، والشكاوى المتبادلة.. فإنك ستفشل حتمًا في الحصول على إغفاءة قصيرة تريح بها بدنك وذهنك. سوف يستمر الوضع على حاله طوال هذا الشهر؛ والسبب؟ لأن المسلمين ـ وهم الأغلبية هنا ـ ذهبوا إلى فصول تعليم الكمبيوتر، واستعانوا بتلك الأجهزة لمعرفة إمساكية شهر رمضان للسنة الهجرية 1422، عبر موقع www.mbs.maghreb.com.. 1422 هو العام الذي نحن فيه الآن.. السنة التي قام فيها اثنان من شهدائهم بتدمير الولايات المتحدة. الـ"إمساكية" توضح لهم الأوقات التي يمكنهم فيها تناول طعامهم. من أجل توفير أقصى سبل الراحة لأنفسهم، عكس الإسلاميون ساعات يومهم، وصاروا يمضون الليل في حالة يقظة. سمَّاعات المسجلات تبث أشياء لا نفهمها، قد تكون أمورًا دينية، أو لعلها أغانٍ عربية.. من يدري؟ الأكيد أنني كنت سأصبح أكثر تقبلًا لتلك الأصوات المفتعلة، إن سمعتها نهارًا، دون أن تسبب اضطرابًا في نومي. لا يوجد شيء أجمل من ألحانهم وأنغامهم في أرجاء مركز اللاجئين بأكمله (عدا "ليديا" بالطبع).. لكننا

لسنا مضطرين للاستماع قسرًا إلى تلك الموسيقى الدينية بأعلى درجة صوت في أجهزتهم، وبالتأكيد.. ليس في الثالثة بعد منتصف الليل!

ليس من الصعب أن تحترم آلهة الآخرين ومعتقداتهم، فمن حق كل إنسان أن يؤمن بما يسعده، طالما أنه لا يزعج غيره بالأمور التي يعتنقها، أو يحرمهم النوم بسببها؛ ولكن حين يتحول صغارك إلى كائنات عنيدة ومشاكسة، بسبب إحساسهم بالإجهاد.. فإن مبدأ تقبل الآخر يصبح شديد الصعوبة.

من الأمور الأخرى التي فشلنا في تقبلها، هي سوء استخدامهم للحمامات. عاداتهم تفرض عليهم أن يعتلوا مقعد الـ"تواليت"، ويقرفصوا عليه، لقضاء حاجتهم؛ أو أن يفعلوا ذلك على الأرض.. النتيجة في الحالتين مقززة جدًا ومثيرة للاشمئزاز. لم يعد الحمام مكانًا للإسترخاء وقراءة الصحف.. بل إن الجنرال "توماتوسكي" توقف عن زيارة الحمام الصغير، الذي كان بمثابة ملاذه الآمن لممارساته السرية السريعة.

هذا الأسبوع، يحل دوري في التنظيف. أنا الذي أسعد بتنفيذ أي مهمة أكلّف بها، كي تشغلني قليلًا وتخلصني من بعض الملل، بتّ أجد التنظيف في الفترة الأخيرة مقززًا للغاية. أفضّل الضجر على أداء هذه الوظيفة.

أصبح الطعام أيضًا مصدرًا للإزعاج. التذمر لا يتوقف.. والواقع أننا نحتاج إلى معجزة لحل مشكلة صغر حجم الوجبات غير المُشبِعة، وعديمة الطعم؛ والحقيقة أن الإدارة تحاول إرضاء العدد الأكبر من الموجودين، من خلال حرصها على ألا تقـدّم سوى اللحوم المذبوحة وفقـًا للشريعة. علينا ألا نتوقع أصنافـًا فاخرة من الأطعمة، كما لو كنا في فندق فخم. أمَّا إن كان هذا ما يرغبون فيه، فقد كان عليهم أن يولـَدوا في دول تحترم حقوق الإنسان. فلتأكلوا المتوفر، شأنكم شأن الآخرين.

لا أعرف بالضبط طريقة الذبح وفق الشريعة، لكن مجرد تخيُّل ثلاثة رجال يحيطون بدجاجة يتفجر الدم من جسدها الصغير، وهم في حالة نشوة وسعادة.. أمر محير بعض الشيء.

الجميع ينتظر انتهاء شهر رمضان بفارغ الصبر. الكل متعَب، والأعصاب مشدودة، وهو ما يهدد بخلافات عنيفة، ومواجهات مع المسلمين. أتمنى أن يرجعوا لحياة النهار، ثانيّة، في أقرب وقت ممكن. ليتهم يحتفلون بعيد الفطر، لننتهي من هذه القصة بأكملها.

يحتفل المسلمون بعيدٍ واحدٍ بعد شهر رمضان. أعيادهم على أي حال تعطيك نوعًا من الإحساس بوجود شيء يستحق الاحتفال به.

كل هذه الاحتفالات المتتالية تجعل من شهر ديسمبر شهرًا كئيبًا للغاية.

فمؤخرًا تم الاحتفال بالقديس "نيكولاس"، وهو عجوز لديه لحية بيضاء ونظارة دون عدسات. يوزع على أطفالنا المطيعين دمى متهالكة، لعب بها الأطفال البلجيكيون لسنوات طويلة حتى أصبحت بالية تمامًا، وهكذا أصبحت صالحة لنا.

للقديس خادم أسود، ولكن على الرغم من أن المركز يمتلئ بالسود، إلا أن المسؤولين به أرسلوا في طلب رجلٍ أبيض من القرية، ودهنوه بالورنيش. يُفترض به إخافة الأطفال المشاكسين، ووضعهم في أشولة. أولئك الأوربيون يحتفلون بأعيادٍ غريبة!!

أمَّا المسيحيون فسيحتفلون قريبًا بالكريسماس. لديهم هنا في المركز شجرة مزينة بحبال برّاقة، وكورات لامعة، بالإضافة إلى مصابيح كهربائية دقيقة محطمة للأعصاب. أمَّا مكبرات الصوت في جنبات القرية، فتصدح طوال الوقت بالأغاني المعتادة في هذه المناسبة، والتي تثير في النفس شيئًا من الشجن. تضاعفت الأسعار في المحلات والدكاكين دون سابق إنذار. وفي أحد أركان السوق، وضعوا خروفًا، بين عدد من التماثيل الدينية.. تتعالى مأمأته وهو يجول بينها بنظراته مندهشًا.

وبعد الكريسماس ببضعة أيام، ستأتي ليلة رأس السنة، وفيها يقوم مجلس البلدية بإطلاق كميات هائلة من الألعاب النارية احتفالًا بالمناسبة. في الواقع جميعنا نفضّل أن يستغلوا المال الذي ينفقونه على تلك المفرقعات في وضع المزيد من الطعام في صحوننا، بدلًا من تلك المفرقعات الملونة التي لا تبهجنا، ولا نرغب في مشاهدتها من الأساس.

بعدها بقليل، تحل رأس السنة الأرثوذكسية.. وفيها يرتدي ثلاثة رجال ملابس تشبه ثياب الغجر، ويصدحون بحماس "نحن ملوك الشرق الثلاثة".

تلي ذلك ليلة رأس السنة الصينية.

لنبتهج! مناسبة تلو الأخرى! ألسنا محظوظين بكل هذه الاحتفالات؟!

ليس أبريل هو الأكثر قسوة، بل ديسمبر.. والمفارقة أن الأخير شهد مولد نبيّ، فيما يسجّل الشهر الرابع من السنة تاريخ صَلبه.

# للساهرين أحاديثٌ لا يتخيلها النائمون

إذا قتلني "إيجور سترافينسكي"، وهو ما أتوقع حدوثه في أي لحظة، فكل ما أتمناه هو أن يفعل ذلك بسرعة. ضربة قوية، خاطفة، على الأنف.. تسقطني على الأرض ذات البلاط القبيح، فاقدًا الوعي، حتى لا أضطر للصياح والاستغاثة وهو يشق جسدي بمطواته الصغيرة. أسوأ ما في الموضوع هو أنني قد سامحته على فعلته المرتقبة، وانتهى الأمر! فهو لن يفعل ذلك لأنه منزعج مني بصفة شخصية، وكل ما هنالك هو أنني –

بصفتي شريكه في الغرفة ـ سأكون أقرب شخص إليه حين يقرر أن الوقت قد حان للعقاب والانتقام. أعرف ذلك الشعور جيدًا.. أعني الانتقام من شخص لا علاقة له بما يغضبك.. فلطالما ركلت كلبًا مسكينـًا، في صغري، عقب تأنيب أبي لي أو ضربه لي على مؤخرة رأسي لتأديبي؛"لكن المسألة انتهت على نحو جيد.. وهأنا قد أصبحت الآن من أكبر محبّي الحيوانات.

ثاني الأمنيات هو أن ينتهي كل شيء، بالنسبة لي، بمجرد موتي. إن كانت هذه الدنيا نموذجًا مصغرًا لما سوف نقابله في العالم الآخر، فإنني ـ بكل تأكيد ـ لا أرغب في الدخول ثانيّة في متاهات طلب اللجوء، وبيروقراطية الأوراق والمستندات والأختام، لتقرر إحدى اللجان هناك بأن تضعني في غرفة ملاكم روسي. لقد مررت بهذه التجربة مسبقـًا، وليس لديّ أي نيّة لتكرارها.. أشكركم جميعًا شكرًا جزيلًا.

على أي حال، من المريح أن تعرف هوية القاتل، قبل وقوع الجريمة؛ ولكن صحيح أنها ميزة، إلا انني لستُ مُستعدًا للمسألة بعد.

أخشى الليل.. أخشى حلوله كل مساء.. وتعبت من التحديق في مرتبة سرير "إيجور" التي تعلوني، وأنا أنتظر أن تنتظم أنفاسه في سبات عميق. لكنه لن

ينام بسهولة، لأن الضجيج والأصوات المتداخلة تملأ المبنى. الطفل الكوسوفي في الغرفة المجاورة، يبكي بصوت مرتفع من شدة الجوع.

لتستطيع النوم بسرعة، ينبغي عليك إرهاق نفسك بممارسة تمارين الضغط، نحو ثلاثين ألف مرة في اليوم مثلًا! أنا لا أمارس تلك الرياضة، من الأساس، لأنها تجعلني أبدو كالأبله. أغادر فراشي، وأقرر زيارة "مقصود" المستيقظ على مدار الساعة. لديه دائمًا أكياس شاي، يحتفظ بها لمن يزوره من الأصدقاء المقربين. فور أن يلمحني، يضع كيسي شاي داخل إناء من الماء الفاتر، يستخدمه عادّة لغسل قدميه مساءً. ألتزم الصمت، ولا أعلق.

أسأله إن كان يرغب في لعب الكوتشينة مقابل سبع سجائر. يعلن موافقته فورًا، ويخبرني بأنه يعرف لعبة باكستانية ظريفة.

حسنًا.. الإنجليزية التي يعرفها "مقصود" قد تساعده على أداء أغنية خفيفة، أو إدارة سوبرماركت يظل مفتوحًا طوال الليل.. هذا بالطبع إن نجح في الاستقرار هنا، أو ربما تعينه على التنقل بين البارات المختلفة لبيع الورود للفتيات السكارى.. جميعها خطط مستقبلية يمكن للغته

الإنجليزية أن تسعفه فيها؛ ولكن شرح خطوات وشروط لعبة؟! الأمر مستحيل، ويفوق قدراته!

يخرج الكوتشينة التي وضعها في حقيبة ظهره، عندما بدأ رحلته متسللًا عبر حدود عشرين دولة. الأوراق مزينة بحسناوات عاريات.. ومع أننا نجهل اللعبة التي سنبدأها، يرمي كل منا ورقة من مجموعته. أفتتح اللعبة بأربعة قلوب حمراء. على الورقة من الخلف، فاتنة ذات شعر أحمر، تحيط رقبتها بثعبان ضخم. يضع فوقها امرأة أكثر إثارة، عشرة ترفل أسود. ألقي ورقة كاروه، وأسحب بها الورقتين السابقتين. "مقصود" لا يظهر أي ردّ فعل. بعد لحظات صمت طويلة، يقول أخيرًا:

- مبروك!

يقولها ربما لإحساسه بأنني أنتظر تعليقـًا منه. لا أفهم سبب تهنئته، فقد قمت بأول ما خطر على بالي. أشعر بأنني ولـّد صغير يمسك بأوراق ملونة، معتقدًا بأنه يلعب الـ"بوكر".

نواصل اللعب بهذه الطريقة.. قانوننا الوحيد، كما يبدو، هو أن من يمتلك طاقة تكفيه لجمع الأوراق التي تتوسطنا، فعليه الإسراع بذلك، ليصبح المنتصر! عليك أن تتحلى بشيء من الحماس، لتتمكن من المواصلة

حتى النهاية. لعبة تصلح للصغار في مرحلة ما قبل المدرسة، أو للمرضى في مستشفيات الطب النفسي، أو للنزلاء في مصحات علاج الإدمان، أو لطالبي اللجوء.. بطبيعة الحال.

في أحد أركان الحجرة، يجلس "داس" ـ الذي يشارك "مقصود" غرفته ـ وهو أحد نمور تاميل السابقين. إنه منفصل عنَّا تمامـًا، ومستغرق في ترديد صلواته الكاثوليكية. من يدري؟ لعلها تكون مفيدة في نهاية الأمر. لا بد أن الكنيسة قد قامت بإرسال إحدى بعثاتها التبشيرية العجيبة لقرية "داس" في زمن ما. قاموا ببناء عدد من الأكواخ والمدارس، ومارسوا الجنس مع السكان الأصليين.. وحوّلوا الأطفال إلى الدين الصحيح.

أصابني السأم من صلوات "داس" المتكررة، والتي لم يتوقف عن ترديدها منذ دخولي.. ولو استمرّ في شكر الربّ على كل شيء، فقد لا أستطيع منع نفسي من الهجوم عليه وركله في مؤخرته إلى أن يعود إلى رشده. من حق كل إنسان أن يتواصل مع إلهه، على النحو الذي يعجبه.. ولكن افعلوا ذلك بهدوء وصمت.. أتوسل إليكم! إنني أشعر بالحرج لاضطراري إلى الاستماع لهذه الحوارات الخاصة جدًا. أنتبه على صوت بكاء "مقصود"، فأندم على تركي لغرفتي،

وزيارة هذين الشخصين! لا بدّ أن "إيجور" يغط الآن في النوم، واضعًا صحيفته المصورة بجواره.

ما الذي أفعله داخل هذه الحجرة أصلًا؟!

يعلن "مقصود"، معتذرًا، عن أسفه على إزعاجي بدموعه، ثم يجثو على ركبتيه واضعًا كيس شاي جديد داخل الإناء الذي برد ماؤه. أجيبه بسرعة:

- لا عليك! لا تكن أحمقَ! كنت سأصاب بالدهشة لو أنك رحت تضحك. بكاؤك أمر طبيعي.

ما الذي كان عليّ قوله؟ كيف أتعامل مع الميلودراما التي يعشقها "مقصود"؟!

يريني علبة دواء منوّم، تحمل اسمًا رقيقًا شاعريًا. هكذا هي هذه الأنواع من العقاقير، كلما زاد تأثيرها القاتل، كان اسمها أكثر رقة وجمالًا. لا يمكنه النوم، إلا عقب ابتلاع نصف محتويات العبوة. لم يعد الأمر هو عدم قدرته على النوم.. بل عدم رغبته في ذلك، وخوفه الشديد من الفكرة ذاتها. في بعض الأحيان، يستيقظ "مقصود" وهو يصرخ، ويرتجف كورقة شجر في مهب الريح، وقد بلله عرق غزير.. حينها لا يكون بيننا.. بل في كشمير. داخل زنزانة. عقابًا له على التصويت لصالح "جبهة تحرير جامو وكشمير".

عينا "مقصود" ليس بهما بياض. إنهما حمراوان تمامـًا. لونٌ تفنن حراس السجن في إضافته لمقلتيه. الطريقة سهلة؛ قم بحبس شخص داخل زنزانة مظلمة، ضيقة للغاية، لا تزيد أبعادها على حجم مصعد في عمارة رخيصة بالضواحي. دعه هناك لخمسة عشر يومـًا، لا يؤنسه فيها سوى جهاز يقوم ببخ سائل مستخلص من الفلفل الأحمر الحارّ، طوال الوقت.

في أحلامه، يستعيد "مقصود" ما فعلوه بالضبط. يراهم بعينيه الحمراوين وهم يقتلون والده ببطء متعمد.. وبحرفية عالية، تجعل الأب منتبهـًا لما يحدث له، وغير قادر على فقدان الوعي. يرى الأمر نفسه وهو يتكرر مع أبنائه. يشاهد زوجته، وقد قيدها الضباط إلى طاولة المطبخ، وهم يتجادلون مع عدد من أعضاء البرلمان المنتخبين، عمن يحق له التمتع بجسدها أولًا. في تلك الأحلام أيضـًا، يطارده مشهد كبيرهم وهو يخرج منتشيـًا عقب أن قام بنهش أعضائها التناسلية بأسنانه.

جسد "مقصود" مليء بالحفر والندوب. إنه المكان المثالي ليلعب فيه الأولاد بسياراتهم متناهية الصغر، كما لو كانت تسير في شوارع وطرقات متداخلة. إنه الصورة المثالية التي يحلم أي مصور تابع لوكالة "ماجنم" بالتقاطها.

يخبرني، شارحـًا:

- إنها آثار كعوب البنادق التي كانوا يضربونني بها. لقد أصبح بطني كـ"باترون" تطريز، منذ أن قام الطبيب باستخراج كل الرصاص منه.

فرغ "داس" أخيرًا من صلواته. يمتدّ بيننا نحن الثلاثة صمتٌ كثيف. لقد شُلّ تفكيري. لا أعرف ماذا أقول. أنا أيضـًا تعرضت لمواقف بالغة الصعوبة، لكن أحدًا لم يمزق أحشائي.. حتى الآن على الأقل. تلقيت لكمات قوية في وجهي، هذا كل شيء. لو أنني أصبت في بطني، لرفعت قميصي وقارنت بين جراحنا بمرح حقيقي.

ما الذي يمكنك القيام به في منتصف ليلة تعيسة كهذه؟

بدأت أتفهم نفور "مقصود" من جميع اللاجئين القادمين من الكتلة الشرقية. إنهم لا يستحقون خوض هذه المغامرة، من الأساس. ما معنى أن تحزم حقائبك وتغادر، لمجرد أنك تعيش في مكان فقير، يخلو من فروع سلاسل مطاعم الهامبرجر الشهيرة؟

إن مصطلح "لاجئ اقتصادي" يعامَل ببعض الازدراء هنا، إذ إن تحسين أوضاعك الحياتية، عبر تناول ساندويتش مصنوع من خبز جاف مرتين يوميـًا، لا يُعد من الحقوق الإنسانية العالمية. إن اتفاقية "جنيف" تنصّ

على أنه يمكنك أن تموت فقرًا، ولكن من غير المقبول أن تموت بسبب رصاصة.. فذلك يتعارض مع الديمقراطية.

- سأتوجه إلى فراشي، لأنام..

أشعر بالسخف بعد تفوهي بهذه الكلمات، لكنني لا أجد لها بديلًا. يجمع "مقصود" أوراق اللعب المتناثرة، ويعيدها إلى علبتها، وهو يقول:

- أنت مدين لي بسبع سجائر. لقد خسرت.

وكما في أي خسارة كبيرة، فإن أحدًا لا يعرف السبب تحديدًا.

A
A
A
A

# أطفالنا الحزانى هم المستقبل

عاد طفل عائلة "بروسينتشكي" من المدرسة اليوم، وعلى شفتيه ابتسامةٌ عريضة. من المؤسف أنه فقد جزءًا من وجهه خلال عملية قصف؛ لولا ذلك لكان صاحب أجمل قسمات على الإطلاق. اسمه "ستايب"، وعمره من عمر أحزانه وآلامه. لو أن حظي العاثر جعلني أنجب ولدًا في يوم من الأيام، فإنني أتمنى أن يكون شبيهـًا بـ"ستايب".. بوجه مكتمل بالطبع.

إنه صبي موهوب. أؤمن بشدة بأن الظروف الكارثية تنمّي مهارات الأطفال، وتجعلها أكثر تميزًا؛ لكنه ليس الوحيد الذي يتمتع بالموهبة هنا. في كل مساء، يجتمع طبيب أطفال نفسي بعدد من الصغار في حجرة الأنشطة، مشجعًا إياهم على التعبيرعن أنفسهم بأقلام التلوين الخشبية. يرسمون جميعًا موضوعات متشابهة؛ مشاهد مزعجة تملؤها القنابل والسكاكين والمناجل. "ستايب" لا يختلف عن أقرانه في هذا الجانب؛ فهو مثلهم تمامًا، يتناول اللون الأحمر أولًا ليرسم به مشاهد دموية، وهو يضغط على القلم بقوة تكاد تمزق الورقة، لكنه الأكثر ذكاءً في تكوين مشاهد لوحاته، وتصويرها من منظور مختلف. بالنسبة إلى سنه، فإنه لاعب شطرنج جيد، كما أنه لا بأس به في لعبة تنس الطاولة. قدرته على الغناء دون المستوى في الواقع. إنه لا يستطيع مجاراة الموسيقى حين يبدأ في رفع صوته مترنمًا. ربما سينجح كعازف كمان متجوِّل في المستقبل، كمصدر لزيادة دخله.. وبخاصة إن قام بعزف مقطوعات موسيقية حزينة. مع وجه كوجهه، سيحقق نجاحًا كبيرًا في هذا المجال. على أي حال، أنا أحبه، وقد سعدت برؤيته قادمًا من المدرسة اليوم، بابتسامة تمتدّ من نصف وجهه فائق الجمال إلى النصف الغائر منه.

حضور المدرسة إلزامٌي لأطفالنا، هنا في بلجيكا؛ ولذلك فإنهم أكثر حنكة منا نحن الكبار في تعاملاتهم اليومية، وأسرع منَّا في التقاط الكلمات الهولندية البذيئة وترديدها بسعادة. لخمسة أيام في الأسبوع، يتم إيقاظ الصغار قبل الآخرين بنحو نصف ساعة، ليتمكنوا من تجهيز حقائبهم ووضع كتبهم داخلها، قبل أن يمر بهم الأخصائي الاجتماعي، ويصطحبهم إلى مدارسهم المختلفة في المواصلات العامة. حرص المسؤولون على ألا يلتحق الصغار بمركز تعليمي واحد، وتم اعتماد سياسة التفريق عند اختيار مدارس الأطفال، لتسهيل اندماجهم في المجتمع. الفكرة صائبة، نظريًا؛ أما عمليًا فإنها لم تحقق نتائجها مع "ستايب"، الذي يجلس في مؤخرة الفصل، وهو يلوك طرف قلمه. إن لم يخاطبه زملاؤه ببطء شديد، فإنه لا يفهم شيئًا من لغتهم الهولندية. اللغة المشتركة التي تجمع بينهم هي لعبة كرة القدم.. والملاحظة الوحيدة التي لفتت انتباهه في عالمه المدرسي هي أن البلجيكيين لا يعرفون كيفية تسديد الكرة وتسجيل الأهداف! وحين يشرح وجهة نظره، يقول بعبارة تنم عن خياله الخصب:

- إنهم يركلون الكرة كما لو كانت إنسانًا!

ألم أقل لكم إنه ذكي ومتميز؟

لكنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة. الدروس أسرع من قدرة "ستايب" على استيعابها، ولذلك يمضي كل وقته في الفصل وهو يغرز أسنانه في قلمه، محدقًا في معلمته، إلى أن يرن الجرس معلنًا انتهاء الحصة. وضعه سيئ، لكنني لو كنت مكانه لطالبتُ بمعلمة أخرى، تنتبه إلى ضرورة أن أستفيد شيئًا من حصصها، بدلًا من اكتفائها بنظراتي المتواصلة إليها.

طلب مني السيد "بروسينتشكي" أن أرافقه إلى مدرسة ابنه لحضور اجتماع الآباء. رأيتُها أخيرًا. لو أن "ستايب" استخدم ألوانه الشمعية بالطريقة العشوائية التي تصبغ بها شفتيها، لفشل حتمـًا في مادة الرسم! لا بدّ أن هواياتها واهتماماتها في الحياة لا تتجاوز "التريكو"، بإبرتين طويلتين أمام شاشة التليفزيون. خلال هذا الاجتماع، لم يكن لديها ما تقوله عن "ستايب"، وهو أمرٌ بديهي.. فماذا تعرف عنه على أي حال؟ يجلس الولد في الصف الأخير، تحت خريطة مطمع الجميع.. أوروبا، وهو يعض قلمه وينظر إليها بتمعن. أبلغتنا أنه متفوق في مادّتيّ الرسم والرياضة البدنية، وأضافت:

- من المؤسف انهيار الكتلة الشرقية سيّـد "بروسينتشكي"، وإلا لكان ابنك أحد أبطال الأولمبياد، بلا شك. كم أحب الجمباز! وبخاصة لعبة "حصان القفز"..

أخبرتنا كذلك بأنه قد رسب في القراءة والكتابة، وأنه ضعيف إلى حد كبير في مادة الحساب. اعتذرت لنا لأنها لا تستطيع أن توليه اهتمامـًا أكبر، ولكن علينا أن ندرك...

- تعلم ما أعني.. أنت تفهم ما أريد قوله.. الوضع كما تعرف.. سيّـد "بروسينتشكي"..

حسنـًا.. المعنى واضح.. ما جدوى تعليم الصبي قواعد تصريف الأفعال، إن كان احتمال طرده من البلد قائمًا طوال الوقت؟ وبعدها، لن ينطق حرفًا بالهولندية لبقية حياته. لديها أربعة وثلاثون تلميذًا غيره داخل الفصل.. صحيح أن بعضهم لا يملك ذرّة ذكاء داخل رأسه، لكن تلقينهم وتحفيظهم دروسهم، مسألة منطقية على الأقل.

فهمنا ما كانت تعنيه، وما أرادت قوله، و نعرف الوضع جيدًا.

عندما أنتظره أحيانًا على محطة الأتوبيس عقب انتهاء اليوم الدراسي لأصطحبه إلى المركز، يقابلني بوجه متجهِّم، ويسير معي وهو يجرّ قدميه

من الإرهاق، وكأن ساعات اليوم الدراسي أكثر بكثير من قدرته على التحمُّل؛ لكن الحال ليس كذلك اليوم. حيّاني بابتسامة سعيدة. شعرتُ بالارتياح، فاليوم عيد ميلاده العاشر. عشر سنوات من الأحزان.

حين أصابته شظايا القنابل، انتزعت عينه اليمنى من محجرها. يكون الوجع محتملًا في البداية، لكن الآلام تتزايد مع مرور الوقت. عينا "ستايب" بُنّيتان في الأساس؛ لكن العين الزجاجية التي حلَّت مكان عينه المصابة لونها أزرق، وهو اللون الذي كان شائعًا حينها في الأعين الزجاجية. أن يكون لكل من عينيك لون شديد الاختلاف عن الآخر، هو أمْر منفِّر بعض الشيء، ويثير الاضطراب في نفسك حين تلمح صورتك في المرآة؛ كما يبعث الارتباك في نفوس الآخرين. هذا الصباح، بينما كنا نتناول إفطارنا، قدّم له مسؤولو المركز هدية عيد ميلاده.. عين اصطناعية بنّية اللون. في بعض الأحيان، لا تكون هدايا الصغار عبارة عن كتاب مغامرات مصّورة، أو دمية على هيئة دب ظريف.

لم يسبق لـ"ستايب" أن شعر بكل هذه السعادة من قبل. مع مرور ساعات النهار، غدت الأمور مبهجّة أكثر فأكثر، ففي المدرسة، تمكن فريقه من الوصول إلى التصفيات النهائية في مباريات كرة القدم المقامة

بين الفصول، بفضل الهدف الذي نجح هو في إحرازه. قام بقية أولاد الفريق بحمله على الأكتاف، احتفالًا بهذا النصر. بعد ذلك، أقام له زملاؤه حفل عيد ميلاد على الطريقة البلجيكية التقليدية.

لستُ ملمّـًا بالطرق البلجيكية في الاحتفال، لكن "ستايب" شرحها لي.. يقوم كل شخص من الحاضرين بكتابة أمنياتهم وتهانيهم لك على جسمك، باستخدام قلم "فلوماستر" سميك، وحين يفرغون جميعـًا من تسجيل عباراتهم، يقفون في دائرة حولك وهم يصفقون في مرح.

أخبرني بأن بطنه وظهره مليئان بكتابات ملونة، وسألني إن كنت أرغب في رؤيتها.. وقبل أن أجيبه، رفع "ستايب" البلوفر بكل فخر.. "عُـد إلى بلدك أيها القذر".. كان أول ما قرأت. سألني بحماس وإلحاح:

- ماذا كتبوا؟ أخبرني. قل لي بسرعة. هل يمكنك ترجمة عباراتهم؟

- نعم.. لقد كتبوا جميعًا "ستايب بطل كرة القدم".

ابتسم بفخر وسعادة. إنه أفضل عيد ميلاد مرّ به.. نعم.. إنه الـ"جميل" الذي سيستمتع بـ"سنة حلوة" حقًا.

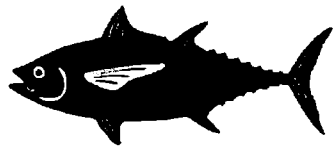

## إذا حدث ورأيت صليبًا معقوفًا يشير إلى الاتجاه الخاطئ، فاعلم أن من رسمه شخص فاشيّ

عَثَرَ "مقصود" أخيرًا على حِل لمشكلته! فبعد أن قام بدراسة ملفه وأوراقه، وبحث باهتمام بالغ في عدد ضخم من القوانين، توصَّل إلى أنه كي تصبح بلجيكيًا، فما عليك سوى الزواج من بلجيكية.. الأمر في منتهى البساطة!

كل ما يحتاجه الآن هو امرأة، ويفضّل أن تكون مكتملة الأطراف والأذنين.. وكل شيء، وبعدها يجهِّز الأوراق المطلوبة منه. حينها، لن يكون مضطرًا لتحمّل تحقيقات مكتب الأجانب، حيث تقف في طوابير طويلة لمدة

ثلاث ساعات، ليوجِّهوا لك أسئلة سريعة لا تدوم سوى خمس دقائق على الأكثر، بحضور مترجم يسيء ترجمة إجاباتك، وينتهي الأمر بقرار تمّ اتخاذه مسبـقًا، قبل حتى أن يشاهدوك.

حين أدرك "مقصود" بأن بإمكانه تحسين أوضاعه بمجرد أن يشارك سيدة بلجيكية الفراش، استحوذت الفكرة على باله، وانشغل بها تمامًا لدرجة أنه لم يلـقِ بالا إلى طعامه. أشعر بالقليل من السعادة حين أراه مستاءً، لأن ذلك يعني حصولي على نصيبه من الوجبة. أصرّ الطبّاخ على أن ما قدمه لنا هو مزيج من الأرز والتونة. بغضّ النظر عمّا وضعوه أمامنا، قررت أن آكل حتى أشبع أولًا، وبعدها أواجهه بالحقيقة. سأصارحه بأنه يعاني من تشوهات في بطنه، وأن اللون الأحمر في عينيه يجعلهما تبدوان كأن أحدًا سكب آيس كريم الفراولة في عينيه، وأن رجلًا بتلك المواصفات غير المألوفة لا يعدّ مطمعـًا للنساء.المسكين غارقٌ في أوهامه، ولا بد أنه يتخيَّل الآن حياته عقب اقترانه بشابَّة من حسناوات بلجيكا.. تعدّ له سمكة رنجة كل يوم جمعة، وتقلي له ستّ أو سبع حبّات من البطاطس كل أحد. سألني فجأة إن كنت أقبل أن أكون شاهدًا على عقد القران. حسنـًا، ولمَ لا؟

بالإمكان أن تكسب قلب امرأة غربية، في صالات الديسكو.

هذا ما يؤمن به "مقصود"، محطم قلوب العذارى في كشمير! يشرح لي الخطوات بالترتيب.. عليك أولًا أن تختار إحدى الفتيات الموجودات في الديسكوتيك، وبعدها تتجه نحوها بمنتهى الثقة بالنفس، لتسألها عن الوقت أو لتطلب منها كبريتًا أو ولاعة.. ثم قدّم لها مشروبًا. قم باختيار أغلى شيء في "المنيو"، وليكن حلو المذاق وبه فقّاعات كثيرة في كأس مزينة بشريحة ليمون. يجب أن يكون كحوليًا، بالطبع. واصل تقديم المشروبات لها، إلى أن تسكر تمامًا. الغربيات يتصرفن كالرجال. انتظر بصبر إلى أن تبدأ أغنية رومانسية هادئة.. أمّا إن كنت متعجلًا فاطلب من الـ"دي جيه" أن يضع لك ما تريد.. فهذه هي وظيفته الفعلية.. التقريب بين الناس. قم باصطحابها إلى المنطقة المخصصة للرقص، وابدأ في التمايل على وقع الأنغام، وأنت تضع إحدى يديك على كتفها، والأخرى داخل بنطلونها (لا تمدّ أصابعك لمسافة كبيرة.. مجرد بضعة ملليمترات قليلة تحت "آستيك" ثيابها الداخلية). عندما تصل إلى هذه المرحلة، اعرض عليها الزواج، بأسلوب لبق، بالغ التهذيب. أهم ما في الأمر، هو أن تؤكد لها في تلك اللحظة أنك لن تجعلها تلبس النقاب، ولن تضربها بتاتًا، ولن تجبرها على إنجاب عدد كبير من الأبناء، وأنك سوف تساعدها في الأعمال

المنزلية وغسل الصحون. سوف ترفض بإصرار، ولكن عليك دومًا أن تتذكر أن المرأة الغربية حين تقول "لا"، فإنها تعني "نعم" في أغلب الأحيان. ببلوغك هذه النقطة، يمكنك فورًا أن تحدد تاريخ الزواج، وتبدأ في تفصيل بدلة الزفاف.

وبسبب هذه النظريات العميقة، تعرّض "مقصود" لضرب مبرح، في أولى محاولاته لغزو البلد وقلوب فاتناتها، نتج عنه كسر في المعصم. لعل العيب ليس في الخطة ذاتها، وإنما في "مقصود" الذي لم يلحظ أن الفتاة المستهدفة كانت بصحبة رجُل آخر.. يبدو أنه يمضي أغلب وقته في بناء عضلاته، داخل صالات الأندية الرياضية!

أي مشروع في الدنيا، لا بد أن يواجه بعض المشكلات والعراقيل في بدايته.

في هذه الأيام، يتودد "مقصود" إلى النساء بطريقة مبتكرة.. وذلك بأن يطلب منهن التوقيع له على جبيرة الجبس المحيطة بيده! يُسمح لنا بالخروج ليلة واحدة فقط، في كل شهر، عقب أن نوقع على ورقة نتعهد فيها بعدم السُكر. صار "مقصود" يأخذني معه في جولات البحث عن عروس.. تبين لي أن اختيار امرأة من رواد النوادي الليلية، ليست هي المشكلة؛ المشكلة الحقيقية هي محاولة دخول المكان! دائمًا، هناك حارس بالغ الضخامة

يسدّ الباب، مرتديـًا نظارة شمسية، حتى لو كانت الساعة تقترب من الثالثة فجرًا. ودائمـًا يردد العبارات ذاتها.. إما أن النادي خاص بالأعضاء فقط، أو أنه مزدحم ولا مكان فيه لزبائن جدد، أو أنك تنتعل حذاء غير لائق، أو أن وجهك بحاجة إلى شارب، أو أنهم يقيمون حفلًا خاصًا من متطلباته أن تتنكر في زي زرافة، أو أنه يتوجب عليك شراء تذكرة دخول بـثمانمائة فرنك بلجيكي (وهو ما يساوي عشرين يورو).. وأن التذكرة لغير الأعضاء تبلغ ألفًا ومائتي فرنك (أي مائة وأربعة ليتاي ليتواني، أو أكثر بقليل من مائة وثمانية لاي روماني). في أثناء ذلك، يقوم ذلك الكائن الضخم بإدخال الحسناوات اللاتي لا يناولنه أي تذكرة، ولسن متنكرات في هيئة زرافات، وليس لأي منهن شارب في وجهها..

يخشى "مقصود" المرور من أمام النادي الليلي الوحيد الذي يمكننا دخوله بسهوله.. خوفًا من أن يكسروا له يده الأخرى!

لإيمانه العميق بوجود الإنسانية في هذا العالم، تلقَّى "مقصود" سلسلة طويلة من الصدمات وخيبات الأمل، طوال حياته.. ومع ذلك ظل بريئًا ونقيًا، وهي الصفات التي تجعل منه الزوج المثالي لأي امرأة؛ لكن الطريق إلى زوجة محفوف بالمخاطر التي يغفل عنها "مقصود". إذا مررنا ببار،

تجلس فيه امرأة تنفث دخان سيجارتها وهي تبتسم للـ"بارمان"، وتهرع إلى حمام السيدات كل قليل لتعيد طلاء شفتيها، فإن "مقصود" يعتقد أن جميع الموجودين كانوا بانتظاره، منذ وقت طويل.

- انظر إلى أولئك الناس الودودين!

ولما كانت هذه العينة من البشر، نادرة الوجود، فإنني أسأله باندهاش:

- أين هم؟

- هناك.. أمام مدخل البار. انظر! إنهم يلوّحون لنا!

- لا تنظر إليهم، وواصل السير يا "مقصود".. إنهم يؤدون تحية "هتلر"!

لكنه يردّ تحيتهم بالمثل، مصحوبة بابتسامة لطيفة.. وكما هو متوقع، يتعاملون مع الأمر كإهانة بالغة.. فنجد أنفسنا نجري بأسرع ما يمكننا، يطاردنا أربعة عشر شخصًا من حليقي الرؤوس، والمفارقة أن اسم البار هو "ويلكوم".. أو "مرحبًا"!

الرجل الذي فكّر وخطط وقرّر بأن الحصول على الجنسية مرتبط بالزواج، صمّم على ألا يعود إلى المركز قبل أن يبدأ أولى خطوات الارتباط

بامرأة بلجيكية. وجدنا أنفسنا أمام مبنى، يخلو من الحرّاس ذوي النظارات الشمسية، كُتِب على بابه "حفل الموجة الجديدة".

"الموجة الجديدة"، على حدّ علمي، هي الترجمة الحرفية لمصطلح Bossa Nova المرتبط بالموسيقى البرازيلية.. التي تبعث بداخلك رغبة فورية في الرقص بحماس، واستعراض مواهبك الخفية أمام الجنس الآخر. هذا هو ملخص تلك الأنغام وما يصاحبها من حركات.. وليس من المستبعد أن تخرج من الحفل متأبطًا ذراع شريك حياتك الجديد.

فتحنا الباب، فاستقبلنا فتى بوجه متعَب، وأخبرنا بأن تذكرة الدخول هي ثمانون فرنكًا. أكّد لنا بإن إيراد الحفل مخصص لتركيب سقف حديدي في صالة الكشافة.

عظيم! ساحة الرقص فارغة تمامًا إلا من ثلاث كائنات أقرب للأشباح، يقفن دون حراك، يلبسن ثيابًا بالية، مهلهلة، من اللون الأسود. كان "مقصود" قد تأنق لهذه المهمة، برباط عنق مزين بشخصيات كارتونية؛ أنا ـ من جانبي ـ لبست أكثر جواربي بياضًا. نسأل البارمان:

- هل لديكم ميت؟

لكنه لا يجيبنا.. ربما كانت السنوات التي أمضاها هنا في ضجيج الموسيقى الصاخبة قد أصابته بالصمم.. أو ربما كان قد قرر تجاهلنا.

نتوجه بكلامنا إلى الـ"دي جيه"، هذه المرة، ونطلب منه أن يضع شيئًا يمكن للناس الرقص عليه.. نقترح "بيلي جين" لـ"مايكل جاكسون".. ينظر إلينا بأسى بالغ، ووجه متألم، كما لو أن طلبنا قد جرح مشاعره المرهفة! لكنه يغير الموسيقى، على كل حال، ويضع أغنية ألمانية. هناك بارقة أمل.. فقد قام نحو عشرين شخصًا للرقص. الأغنية تافهة ولا معنى لها، وتتكون من عبارة واحدة تقريبًا:

- أريد أن أكون دبًا قطبيًا. أريد أن أكون دبًا قطبيًا. في القطب البارد. أريد أن أكون دبًا قطبيًا.

على إيقاع هذه الكلمات المتكررة، ارتفعت بعض الأذرع في الهواء.. تلك هي الرقصة! ثم تحركت أقدام قليلة.. شعرت بالحزن لأننا لم نتمكن من دخول حفل الزرافات.. كنا سنستمتع قليلًا ولا شك. أقول لـ"مقصود":

- لا أفهم هذه الأغنية!.. هل تريد أن تكون دبًا قطبيًا؟

"مقصود" لا يفهم شيئًا مما يدور حوله. تزايد إحساسه بالانزعاج والغيظ، حين أراد دخول الحمام، واكتشف أن عليك أن تدفع مقابل ذلك.. سألني باستغراب:

- لماذا يريدون أن يكسبوا مالًا من ذلك؟..إنه بولي أنا!

انتهت الليلة بعودتنا إلى البيت.. أعني المبنى رقم 4. الجوّ شديد البرودة.. لا يمكن أن يتسلل الواحد إلى حاوية بضائع في هذا الجو. سوف نؤجل كل شيء، حتى العروس وحفل الزفاف. نتمنى حظـًا أوفر في الشهر القادم.. إن كنا لا نزال هنا.

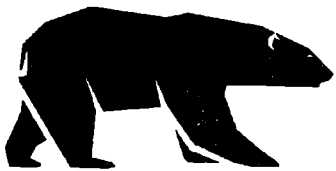

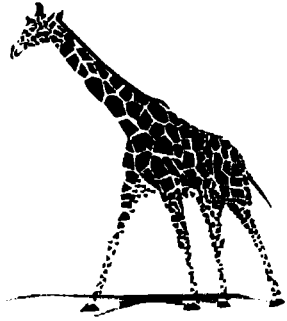

# اللجوء إلى بلد "إيدي ميركس"

الفائز بلقب "أحمق" لهذا اليوم هو "آفييانى آكويجبو" الذي لا يجيد ركوب الدراجات.

إن اختيار"آفييانى" لنيل هذا اللقب، هو أهم حدث في يوم الثلاثاء هذا، والذي يمكن اعتباره أربعاء أو جمعة، لأنه يوم لا يتميز بأي شيء. ثاني حدث خفَّفَ قليلًا من إحساسنا بالضجر، هو اختفاء الجنرال "توماتوسكي" المفاجئ. كان قد تلقى قرار ترحيله، وفضّل أن يحل المسألة

بطريقته. غادر المكان الليلة الماضية كما يبدو. نعلمُ جميعـًا بأنه دفع لأفراد المافيا مبلغًا ماليًا ضخمًا يغطّي سبع محاولات لتهريبه إلى إنجلترا. بقيت له ثلاث محاولات. في فوضى رحيله المتعجل، نسي "توماتوسكي" زجاجة ويسكي في غرفته. في الممر المواجه لحجرته، احتدّت الأصوات في همس غاضب، وبدأت مداولات ومناظرات جادّة بين المجتمعين، للتوصل إلى أكثرهم أحقية في الفوز بتلك الزجاجة. حرصوا جميعـًا على عدم رفع أصواتهم، لأن السُكر ممنوع تمامـًا، حسب قوانين المركز؛ ومن يُضبط على تلك الحالة، يُطرد فورًا.. دون استثناء لأحد، كما يتم تسجيل الواقعة في ملفه الشخصي، وهو ما يفسد فرصته في الحصول على الإقامة من مكتب الأجانب.. باعتبار أن تلك الفرصة موجودة في الأساس!

نتوصل أخيرًا إلى تسوية ترضي جميع الأطراف.. مباراة شطرنج يأخذ الفائز فيها تلك الزجاجة. كان بالإمكان أيضًا أن نجري انتخابات ديمقراطية بين المتنازعين، لكن الواقفين في الممر يجهلون جميعًا معنى الكلمتين.. لا يعرفون "انتخابات"، ولا "ديمقراطية"، وهو شيء طبيعي بالنسبة لهم.

مكتبة
t.me/t_pdf

الحياة البائسة قابلة للتغيير، و"آفييانى" هو خير دليل على ذلك؛ في الواقع.. الحياة هي التي تتغير، ويظل البؤس على حاله! فحتى الأمس، كان في إمكاننا الذهاب إلى مبنى الإدارة واستعارة الدرَّاجة للذهاب إلى القرية. إنها ليست "درَّاجة" بالمعنى المتعارف عليه، ولكن طالما أنها بعجلتين ومقعد ومقود.. فإنها تؤدي الغرض، وتساعدنا على التنقل، والترفيه عن أنفسنا بمشاهدة واجهات المحلات التجارية، والذهاب إلى الكنيسة. يستخدمها أغلب الناس لحضور قدّاس يوم الأحد.. ولأن لا شيء يحدث هنا – سوى الشجارات التي يعتدي فيها الشيشان بالضرب على السود ـ فإن عددًا كبيرًا من ساكني المركز صاروا أكثر تدينـًا وحرصـًا على حضور جميع الصلوات والمناسبات المقامة في الكنيسة.. قداس الصباح، وقداس منتصف الليل، والتعميد، والجنائز. لكن صديقنا "آفييانى" وضع حدًّا لكل ذلك، ويبدو أننا سنضطر قريبًا إلى قطع المسافة التي تفصلنا عن القرية سيرًا على الأقدام. سوف تفتقد الكنيسة عددًا كبيرًا من زوارها، كما أظن.

هذا ملخص الأمر: ينتمي "آفييانى" إلى قرية إفريقية مجهولة، يمكن اعتبارها عاصمة الإقليم بسبب وجود بئر ماء بها، وإن كان علينا أن نتغاضى عن كون ذلك الماء شديد القذارة. وسيلة المواصلات الوحيدة

المتاحة هناك هي الحمار. تلعب الحمير دورًا هامًا في حياة البشر في تلك المنطقة.. فهم يركبونها، ويأكلونها أيضًا؛ والمشكلة الحقيقية التي تواجه الجميع هناك هي: "أي الخيارين أفضل؟ هل تركب الدابة وتبقى جائعًا؟ أم تأكل الحيوان وتضطر إلى المشي لمسافات طويلة؟".

قبل مغادرته لوطنه، لم يشاهد "آفييانى" درَّاجة في حياته، ولذلك فإنه من البديهي ألا يعرف شيئًا عن تخصيص جانب من الطريق لمرور الدراجات فقط. كما أنه ليس من المُستغرب أن تكون قمة سباقات الدراجات في أفريقيا، هي تلك التي تجري في "بوركينا فاسو"، والتي تمتد على خط مستقيم في كل مراحلها.. وهو ما يفسر عدم قدرة الأفارقة على الميل بدراجاتهم يمينًا أو يسارًا. على أي حال، وصل "آفييانى" إلى أوروبا وتعرَّف إلى وسيلة المواصلات المدهشة هذه، وسرعان ما تعلَّم كيف يركبها ويحافظ على توازنه فوق مقعدها الصغير؛ لكنه ظل ينزل عنها عند كل منحنى. من السهل أن نسخر منه، لكن إصراره على تعلُّم شيء جديد وهو في الخامسة والأربعين، أمْر يستحق الإعجاب..فلو كنت مكانه، لترددتُ طويلًا.

مشكلة "آفييانى" الكبرى هي اقتناعه بأن الحارات الوسطى في الطريق، هي الأكثر سهولة لقيادة الدراجة، ولذلك تراه يمر بها بين

السيارات، غافلا عمّا يسببه للسائقين من خوف وغضب .. يستمرون في تنبيهه بالـ"كلاكسات" المتواصلة، وقد أوشك كل منهم على الإصابة بالقرحة من فرط التوتر، لكن "آفيياني" يظن أنهم يقومون بتحيته! إنه يعتقد أن الشعب البلجيكي هو الألطف في العالم كله. يقابل "تحياتهم" بابتسامة عريضة، تظهر أسنانه ناصعة البياض.. ولولا خشيته من السقوط، لرفع لهم يده ملوحـًا، شاكرًا أدبهم وتهذيبهم.

ليس هناك تأمين من أي نوع على طالبي اللجوء، ولو قرر أحد السائقين أن يقوم بدهسنا بسيَّارته، فإن علينا نحن أنفسنا أن نتولى مسألة لصق أعضائنا المتناثرة، بالصمغ؛ ويفضّل أن ندفع ثمنه من جيوبنا!

وهكذا، قررت إدارة المركز أن يخضع الجميع لاختبارات نظرية وعملية في قيادة الدراجات، للتأكد من مهاراتنها، وحرصًا على عدم إزعاج الآخرين. الحقيقة أن الأمر بأكمله بالغ السخافة.. علينا أن نصعد بها على هضبات مرتفعة، ثم ننزل بها في منحدرات عميقة، ونبين قدرتنا على استخدام الفرامل، والإضاءة، والجرس (المكسور).. وأن نبرهن على معرفتنا بكيفية نفخ العجلات، وإعادة وضع الجنزير في مكانه.. كيف سننجح في فعل كل

ذلك تحت الأعين المتفحصة لأعضاء إدارة المركز؟ ومن يفشل في اجتياز هذه الاختبارات بتفوق، سوف يُحرَم من استعارة الدراجة.

إن أجمل ما في الطفولة، هو أنها انتهت وولّت.. ولذلك فإننا جميعًا نشعر بالغيظ من "آفيياني" لأنه أعادنا أطفالًا في السابعة، ينتظرون موافقة الكبار على ركوبهم الدراجة.

صحيح أن "آفيياني" لا يفهم إشارات المرور، ولا قواعده، وأنه قد تم اختياره "أحمق اليوم" بالإجماع.. إلا أنه يمتلك قدرة غريبة على حل المشكلات المستعصية، وبخاصة إن كان الأمر يتعلق بالمشروبات الكحولية.. فقد توصَّل إلى طريقة مبتكرة نوزع بها محتويات الزجاجة التي عثرنا عليها. اقترح "آفيياني" أن نلعبْ الشطرنج مقابل كميات قليلة من الويسكي. يشرب الفائز كأسًا صغيرة، ثم يلاعب المتسابق التالي.. وهكذا. سعدت "آنا"، عاهرة المركز، بهذه الفكرة العبقرية.. وبعد مباحثات سريعة وافقنا على أن يكونا أول المتنافسين، وأن أكون أنا حَـكَـم المباراة.

لـ"آنا" مواهب متميزة في مجالات متنوعة، نقابلها بالتقدير وبالسجائر، لكن الشطرنج ليست من مواهبها المتعددة تلك، كما يبدو، إذ

سرعان ما يهزمها "آفييانى" خلال وقت قصير.. واحتفالًا بانتصاره، يشرب الكأس دفعة واحدة. هل يحب الخمر لهذه الدرجة، يا ترى؟

يتواصل فوز "آفييانى".. يهزم ألبانيًا، ثم المحامي الجزائري (ولكن بصعوبة بالغة).. ثم كوسوفيًّا، وشيشانيًّا، وصربيًّا، وكرواتيًّا، وغجريًّا لا يملك أي أوراق إثبات شخصية، ثم ألبانيًا آخر.. كان سيلعب مع الكوري أيضًا، لولا أن الزجاجة فرغت تمامًا، وكاد كبده أن يصرخ طالبًا النجدة!

يهنئه المهزومون بابتسامات مغتصبة. أتوقع أن ينال جائزته الكبرى بعد قليل، إذ إن "آنا" في طريقها إلى مبنى الإدارة، لتبلغهم أن السيّد "آفييانى" من المبنى رقم 4 في حالة سُكرٍ بيّن.

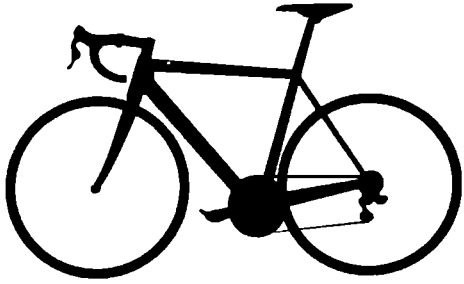

# انتقال آهة

"ليديا" ليست بحاجة لأن ترفع صوتها كي يسمعها المتحدث على الطرف الآخر على بُعد آلاف الأميال، بل يمكنها أن تتكلم بطريقتها الهادئة المعتادة، أو حتى بالهمس كما تفعل حين نتحاور ليلًا. إنها تجلس في غرفتي (رقم 26- مبنى 4)، ولكنها في الوقت ذاته هناك.. في قريتها الجبلية على الحدود بين ألبانيا واليونان. وسائل الاتصال هي إحدى معجزات الحياة، ويجب أن يظل انبهارنا بها قائمًا إلى الأبد.

ها هي على حافة فراشي، في ملابسها الداخلية وتيشيرت وردي، بينما يسافر صوتها عبر مسافات شاسعة إلى مسقط رأسها. ليست بحاجة إلى التسلل في حاوية بضائع، للوصول إلى هناك. لولا أنني أدرك طبيعة الأمر، لقمت ـ من شدة إعجابي وانبهاري ـ بتناول سماعة التليفون من يدها، لأستنشق الروائح هناك.. القمح والفحم والكبريت والأزقة ذات القطط الهزيلة.. الروائح التي تحمل عبير أصلها وجذورها.

إنها المرة الأولى التي تتحدث فيها "ليديا" إلى أمها منذ وصولها. ولأن منزلهم يخلو من هذا الاختراع العجيب، فإنها تتصل بمكتب بريد القرية، وتطلب منهم أن ينادوا أمها.

- من أنتِ؟ آه.. نعم.. ومن تريدين؟ نعم. كلَّا.. لا أعرف يا سيدتي.. كان هناك إطلاق نار البارحة، وقد احترقت بضعة بيوت.. سأذهب لأرى إن كان بإمكاننا العثور عليها. هل يمكنكِ الانتظار على الخط؟

في ذلك المكان البعيد، يغادر أحدهم مكتب البريد، ويسير بين الأنقاض.. يسأل أحد المارّة إن كان قد رأى أم "ليديا" لأن لها مكالمة تليفونية. تتنهد "ليديا". هناك، في تلك القرية، تصل التنهيدة وتخرج عبر السماعة الملقاة على مكتب موظف البريد. هل التقطتها أذن أحد؟ هل سمعها الواقفون في

طابور أمام شباك بيع الطوابع، مثلًا؟ وهل أطلقوا بدورهم تنهدات مماثلة، لأن المسألة معدية عادةً؟

هناك احتمالان؛ إمَّا أنها تلقي سكينها الذي تقشر به حبّات البطاطس الآن، بجوار دجاجتها المذبوحة، وتهرول تجاه مكتب البريد بأقصى سرعة؛ وإما أن الدجاجة لا تزال على قيد الحياة.. وصاحبتها هي التي فارقت الدنيا في أحداث البارحة.

صرير باب، خطوات سريعة، حشرجة..

- "ليديا"!.. هل هذا أنتِ؟

- ماما!.. هل هذا أنتِ؟

يتعانق صوتان في جانِب ما من الكون.. حيث تقوم الأقمار الصناعية بتوزيع المكالمات التليفونية.

- أين أنتِ الآن يا ابنتي؟ هل انتهت الرحلة بسلام؟

عليها ألا تقلق. لم يكن بالإمكان توفير رحلة أفضل. لقد قام المهربون بتذليل كافة العقبات.. الأوراق والوثائق الشخصية تمّ تزويرها باحتراف كامل، العبور من الحدود لم يكن صعبـًا، وما أن تخطَّوا تلك المرحلة، حتى

قاموا بوضعهم في أتوبيسات مكيفة. تضمن جدول الرحلة التوقف كل ثلاث ساعات في استراحات على الطريق، لتناول القهوة. خلال الليل، ناموا في فنادق مختلفة، تتراوح بين ثلاث وخمس نجوم.. بها بارات وحمامات سباحة، وساونا، وإفطار فاخر يتكون من قطع "كروسون" وعصير برتقال طازج. بعد خمسة أيام، وصلوا إلى الساحل، وركبوا عبّارة أوصلتهم إلى أرض الأحلام في ساعتين فقط. أحسّت بدوار البحر. هذه هي المشكلة الوحيدة التي قابلتها خلال الرحلة بأكملها.

- سوف يفرح "رسلان" ابن خالتك بهذا الخبر. إنهم يبحثون عنه في كل مكان.. يتهمونه بقتل شخص مسلم، ولذلك فإنه يفكر في الهروب قبل أن يلقوا القبض عليه. سوف أبلغه بأن رحلتكِ سارت على ما يرام. سيسعد بذلك. أين أنتِ الآن تحديدًا يا صغيرتي؟

تخبرها بأنها تتحدث من داخل كابينة تليفون في وسط لندن.. وأن نهر "التيمز" يجري على شمالها، وأنها تستطيع من موقعها الحالي رؤية ساعة "بيج بِن"، ومبنى البرلمان. لندن مدينة جميلة، وناسها ودودون للغاية، وأغلبهم ـ لحسن الحظ ـ يتكلمون اللغة الإنجليزية. لقد استطاعت الحصول على وظيفة في بار، "كلا يا أمي.. الأمر ليس كما تظنين.. إنه مكان

محترم وروّاده مهذبون، يمضون وقتهم في مناقشة أعمال شكسبير وسوق المال"، وهي تكسب مبلغـًا معقولًا من المال، يمكّنها من تناول ساندويتش همبرجر في "ماكدونلدز".. يوميًا. سجائر "المارلبورو" هنا طعمها أفضل. إنها تعيش في شقة، وتتردد عليها خادمة لتنظيف مسكنها.. امرأة جيدة، غير فضولية ولا تفتش في أغراضها؛ والأهم من كل ذلك، أنها قد التحقت بالجامعة لاستكمال دراستها.

– سوف يسعد "رسلان" بذلك. "رسلان".. إنهم يبحثون عنه. يقولون إنه قتل مسلمـًا، لكنني متأكدة من أنه لم يفعل شيئـًا. إنه لا يقوم بمثل تلك الأفعال أبدًا.. ولكن ما فائدة هذا الكلام الآن؟ هؤلاء المسلمون لا يصدقوننا، على أي حال، وكل ما يرغبون فيه هو الانتقام، حتى لو كان الشخص بريئـًا.. هكذا هم دائمـًا! سوف أبلغه بأنكِ بخير وفي أفضل حال. ما عنوانكِ؟

تقول لها إنها في 10 دوانج ستريت، وتسألها إن كان بإمكانها تدوينه.

الأم لا تعرف الكتابة باللغة الإنجليزية، ولكنها سوف تحاول تذكّر العنوان.

- سوف يسعد "رسلان" بذلك. لقد قرر أن يغادر البلدة، هربًا من بطش المسلمين، الذين يتهمونه دون وجه حق بقتل إخوانهم. سأخبره بأنكِ تعيشين في لندن، في البناية رقم 10 بـ"تاوني ستريت".. سأقول له بأن بإمكانه أن يقيم معك إلى أن يتمكن من الحصول على وظيفة ومسكن. إنه ماهر في أي شيء له علاقة بالأخشاب.. قد ينجح في الحصول على وظيفة في مصنع أثاث، ربما؟ هل يمكنني يا ابنتي أن أقترح عليه أن يعيش في منزلك لبعض الوقت؟

- بالطبع.

- هل صرتِ تستطيعين النوم الآن، دون أصوات القنابل والقذائف؟

- هل أنتِ بخير يا أمي؟

- في أول زواجنا، عشت ووالدك بجوار سكة حديد، لا تتوقف القطارات عن المرور عليها. كان الناس يسألوننا بدهشة عن قدرتنا على النوم وسط تلك الأصوات المزعجة، والاهتزازات التي تتسبب فيها القطارات، لكننا حين انتقلنا إلى الكوخ الذي وُلدت فيه، بقينا مستيقظين ليلة تلو الأخرى. افتقدنا أصوات القطارات. أضعنا شيئًا مألوفًا.. هل كل شيء على ما يرام؟

- بالتأكيد. على أفضل ما يمكن. قد تحتاج بعض الأمور لأن تتحسن بعض الشيء، لكنها في وضع ممتاز.. بشكل عام.

- ماذا عن الطقس؟ كيف هي الأجواء في لندن؟ أي نوع من الملابس ينبغي لـ"رسلان" أن يأخذ معه؟ لقد قرر الهروب. لقد ضربه المسلمون ضربًا مبرحًا، ثم قالوا له إن المسألة لن تتوقف عند حدّ الضرب. لقد أظهروا له السكين التي سوف يذبحونه بها. إنهم مجرمون.. هذه هي حقيقتهم!

اسكتي قليلًا أيتها العجوز الخرفة..

أنصتي إليّ يا أمي.. أنا أقف في كابينة تليفون عمومي، وهناك أشخاص آخرون ينتظرون دورهم، كما أنني قد طلبت سيارة تاكسي لتقلني إلى عملي.. سوف تصل في أي لحظة، عليّ إنهاء المكالمة الآن..

- ليتكِ تعلمين كم صليت بحرارة من أجل وصولك بالسلامة، وتمتعكِ بحياة أفضل. ما زلتِ تصلّين، أليس كذلك؟ عليكِ أن تشكري الرب يوميًا. تذكري دائمًا بأن الصلاة مثل أقراص الأدوية.. أعني قبل الطعام وبعده. أنا سعيدةٌ جدًا لأنني سمعت صوتك. إن استمر ضربنا بالقذائف الليلة، فإنني سأكون ممتنة لأنك لستِ هنا، وأنكِ في مكانٍ آمن.

تغلق "ليديا" الخط. صوت عناقهما التخيلي يضيع في الكون..

- لم تشاهد المسكينة تاكسيـًا من قبل.. هل تظن مثلًا بأن السائق سينتظرني لساعات؟

تضيف بجدّية:

- على الأقل، سوف تنام الليلة وهي تشعر بارتياح بالغ.

لو لم يكن لدينا أمهات، لما اضطررنا للكذب.

في هذه اللحظة، في مكانها البعيد، تدندن الأم بسعادة، وهي تنتف الريش عن دجاجتها.

في هذه اللحظة، هنا، تجلس "ليديا" بجواري على حافة السرير، في انتظار قدوم ساعي البريد من الجهة الأخرى من الأسوار الشائكة. نتشاغل بحساب الوقت المتبقي على موعد وجبة العشاء. تتمنى "ليديا" أن يقدموا لنا دجاجـًا، أو شيئًا يقترب طعمه من ذلك.

## هل يوجد ما هو أفضل من زواج غير سعيد؟!

توصل "مقصود" إلى حل جديد لمشكلته أخيرًا. لم يكن منتبهـًا، على الأرجح، إلى أنه قد أصبح من سكّـان النصف الرأسمالي من الكرة الأرضية.. نحن الآن في أوروبا، يمكنك هنا أن تشتري أي شيء.. سيارات.. زوجات.. كل ما تريد. الصحف مليئة بإعلانات تعرض فيها النساء أنفسهن. كائنات رقيقة، كل ما تتمناه هو دبلة في إصبعها. و"مقصود" الذي بدأ رحلته في البحث عن عروس، وهو يجاهد كي يعثر على موضوع

شيق يتحدث فيه مع أي امرأة، وجد نفسه ـ فجأة ـ غارقـًا في بحر من الإعلانات المبوبة أشبه بالـحرملك. تطلب الأمر نحو أسبوع كامل، إلى أن انتهى من اختيار المواصفات الأكثر ملاءمة.

مصففة شعر، 48 سنة، مطلقة، شخصية متفتحة ومقبلة على الحياة، صحبتها ممتعة، لطيفة جدًا.. تبحث عن إنسان يتمتع بكاريزما عالية، ويحب الحياة.

إعلان آخر.. موظفة إدارية، 33 سنة، مطلقة، جميلة (جميعهن يذكرن هذه النقطة، بالطبع) تبحث عن شخص يتصف بالنشاط، والموضوعية.

إعلان ثالث.. "راكيل"، 45 سنة، تريد حبيبـًا يناسبها في العُمر.. طويلة، رشيقة، شقراء، وتحب المرح.

كل إنسان يحب المرح! إنها بديهيات! حسنًا.. لا مفر من أن نستبعد الإعلان وصاحبته.

هناك "تانيا"، 32 سنة، من مدينة "جينت"، طولها 170 سم، شعر أشقر قصير، عينان خضراوان، و... ما هذا؟! ولد في الحادية عشرة؟! كلًّا.. يجب استبعادها فورًا.

ماذا عن المعلمة؟ إنها 27 سنة، من بروكسيل، جميلة جدًا، ابتسامة جذابة، سمراء، طباع لطيفة للغاية.

إعلان مختلف: "شقراء، تبحث عن ذكر أبيض أعزب، مع أبناء أو من دون، لا يدخن، لا يتعاطى المخدرات. من منطقة "ديندير موندە". تحب الأفلام والموسيقى، والطبخ، والسفر".. والحقيقة أنها صاغت أغلب طلباتها بحروف مختصرة، ما استلزم منا وقتًا كبيرًا لفكّ شفراتها! من الصعب التعامل مع أمثالها كما أعتقد..

الرأسمالية اختراع عظيم، وعيبه الوحيد هو أنك بحاجة إلى المال، لتتمكن من المشاركة فيه. يطلقون على ذلك لفظ "استثمار"، أو "اليانصيب"، أو "الجائزة الكبرى".. كلها كلمات معبرة يمكن كذلك استخدامها عند الحديث عن اختيار زوجة.. وعن جواز السفر الذي ستجلبه لك معها بطبيعة الحال.

يخرج "مقصود" مبلغ ثلاثة آلاف، على هيئة عملات معدنية، ليدفعها نظير اشتراكه في خدمة تعارف (أي 47 لات ليتواني، أو 102,583 وون كوري، أو 123 دولارًا سينغافوريًّا).. تشتمل الخدمة على إرسالهم له نسخة من مجلة، عبارة عن قوائم بأسماء النساء الراغبات في الارتباط، وأيضًا حضور حفلتين في صالة تحمل اسم "كازانوفا"، يتاح له خلالهما الرقص

مع عدد كبير من الفتيات والتعرف إليهن؛ كما أن ثمن الاشتراك يتضمن مشروبـًا واحدًا. ويُطلَب من المشاركين الحضور بملابس أنيقة ونظيفة.

الحصول على جواز السفر البلجيكي، يستحق كل هذه الخطوات. لقد استثمر "مقصود" نقوده الأخيرة من أجل أن يتمكن من مقابلة نساء الإعلانات المبوّبة، ورؤيتهن على الطبيعة.

نلمح "مقصود" المُعدَم عائدًا من صالة "كازانوفا". لم تأكل أي سمكة الطـُعـم، لكنه فهم أخيرًا معنى المصطلحات المتداولة في إعلانات التعارف والزواج..

"على قدر معقول من الجاذبية": أي دميمة، وشديدة القُبح.

"قوام ملفوف": أي تعاني من سمنة مفرطة، ولها لُغد ضخم، وطبقات متراصة من الشحم على جسدها.

"رياضية": تشعر بالإجهاد إن اضطرت لركوب الدراجة بدل السيارة. إنجازاتها الرياضية لا تتجاوز ثلاث دقائق على أجهزة الرشاقة المنزلية، أو ممارسة اليوجا لنصف ساعة أسبوعيـًا مع صديقتها التي تماثلها من حيث اللياقة البدنية.

"مطلقة": حسنـًا.. لا معنى خفيّ لهذه الكلمة، إنها مطلقة بالفعل.. لكنك حين تتحدث معها لدقائق، تتفهم مشاعر زوجها السابق وتلتمس له العذر على هجره لها، لأنها شخصية لا تـُطاق!

إذا لم يذكر الإعلان عُمرها، فاعلم أنها على المعاش؛ أما إذا لم يُـشِـر إلى وظيفتها، فإنها عاطلة عن العمل.

إن لم تورد المعلنة شرطـًا يتعلق بكونك أبًا ولك أبناء، من عدمه، فإنها تعاني من خلل في شخصيتها يجعلها شديدة الانطواء، ويمنعها حتى من تبادل عبارات المجاملة المعتادة مع جيرانها. إنها تريد زوجـًا يؤنس وحدتها، ويكملان معـًا درب الحياة ـ كما يقولون ـ لا يهمها من يكون.. ولا إن كان لديه ستّـون طفلًا، ولا حتى إن كان نصفهم يعاني من النشاط الزائد، والنصف الآخر مصاب بالبلاهة؛ المهم ألا تموت وحيدة، وأن يكون هناك من يمسك يدها حين تضطر المرضات إلى فصل أجهزة التنفس عنها.

لا عيب في كل هذه النماذج، لكنها ليست ما يبحث عنه "مقصود".

حين تقع عينك على إعلان تذكر صاحبته بأنها لطيفة الطبع والمعشر، وتريد شخصًا محترمًا ومهذبًا، ويُفضّل أن يكون جامعيـًا.. فإنك ستظن بأنها في

انتظار الإنسان الذي يماثلها في مستواها الفكري؛ لكنك ستدرك الحقيقة المُرّة حين تتعرف إليها.. إنها بقرّة كسول، تكره العمل، وتبحث عن شخص غني، لتتمكن من التردد على صالونات التجميل التي لطالما حلمت بها.. أقنعة الطين على وجهها، وشرائح الخيار على عينيها، وطبقات من الصلصال على جسدها.. في محاولة لشدّ بطنها المترهل. قليل من معجون الأسمنت لسدّ مسامها المفتوحة، السيليكون ليجعل ثدييها أكثر تماسكًا! تريد زوجًا يصطحبها في سفريات فاخرة، تتناول فيها مشروبات ملونة تزين كؤوسها مظلات ورقية مبهجة. زوجًا يجلب لها خادمة تعاونها في تنظيف المنزل.. كلّا، بل خادمة لتهينها وتضربها إن لم تقم بأعمالها على أكمل وجه.

كلمة "حسّـاسة": تعني أنها عصبية جدًا لدرجة تقترب من الهستيريا.

"رشيقة": تعاني من النحافة المرضية.

"لديها اهتمام بالطعام": عاشقة شرهة لجميع أنواع الأطعمة، ورائحة الجبنة في نظرها هي الأروع على الإطلاق!

"مرحة": كثيرة الضحك، بلا أي سبب مفهوم.

عرف "مقصود" الحقيقة إذًا، وأفاق من أوهامه. بدأ يفكر في اللجوء إلى أي دولة شيوعية إن صدر قرار بترحيله من بلجيكا. لم يبقَ أمامه سوى خطوة أخيرة

قد تعينه على الحصول على زوجة وجنسية.. أن ينشر هو إعلانـًا بمواصفاته الشخصية وشروطه.

"مقصود". غريب ومدهش. 32 سنة. يبحث بصورة عاجلة عن آنسة أو مطلقة: غير رياضية، غير حساسة، غير مرحة.. للبدء في حياة زوجية جديدة. لا أبناء. لا تحب الأفلام، ولا الطعام الجيد، ولا السفر. الأجنبيات يمتنعن!

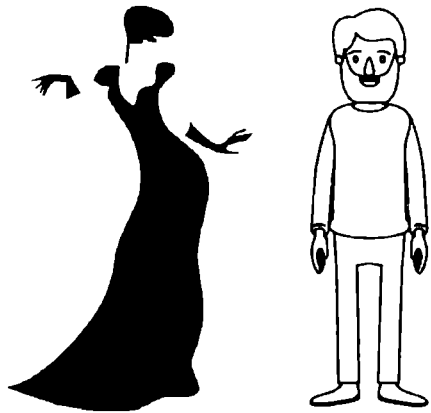

## الإبحار ضرورة أهمّ من الحياة

## "بلوتارك"

الرجل ضئيل الحجم، الذي يقف أمام خارطة أوروبا، مضحٌك بعض الشيء.. يبدو كعالِمٍ ممتاز، ساقه الحظ (أو ربما سوء الحظ) إلى أن يصبح مذيع النشرة الجوية. له شارٌب لا يناسبه، وأغلب الظن أنه وقف أمام المرآة يومـًا وقال لنفسه إن وجهه بحاجة إلى واحد. يستعرض البدلة التي يرتديها بمزيج من الخيلاء وعدم الارتياح، كالأطفال حين يلبسون ثيابًا جديدة في تناولهم الأول في الكنيسة. ارتفع الكـُمّان كثيرًا وهو يشرح

اتجاهات الرياح، بحركات قوية من يديه، ما يعني أن مقاس الجاكيت ليس ملائمـًا. حين ابتسم للمشاهدين، بطريقته الرسمية المتحفظة، وهو يبشرهم بأن درجات الحرارة آخذة في الارتفاع، وإنها ستصبح أعلى بقليل من الصفر.. سَرَت مشاعر الطمأنينة بين الجالسين في غرفة التليفزيون. لقد انتهت الموجة شديدة البرودة أخيرًا!

للتقارير الجوية، هنا في المركز، أهمية قصوى للعديد من الناس. يكفي أن أقول إن التخطيط لرحلات إنجلترا قد توقف تمامًا في الفترة الأخيرة. تسألني "ليديا" إن كنتُ على استعداد للاختباء معها داخل باخرة كبيرة. إنها قاصر، وما زال بإمكانها البقاء هنا لعامين إضافيين، دون مضايقات من أحد. لا أفهم سرّ إصرارها على خوض هذه المغامرة بالغة الخطورة.. وما نتيجتها؟ يوم يبدأ أمام شاشة التليفزيون، وهي تأكل "كورن فليكس" وتشرب الحليب، داخل بيت عتيق الطراز، وينتهي على فراش يضيق بها وبالرجل الذي يقاسمها حياتها؟ لقد أمضى ساعات الليل بأكملها وهو يشرب بيرة "نيوكاسل براون" أمام طاولة البلياردو، حزنـًا على هزيمة فريقه المفضّل لكرة القدم.. الإنجليز شعب مجنون! هل تجهل ذلك؟ إنهم يقودون سياراتهم على الجهة اليمنى! ويعتقدون أن الجولف والكريكيت ألعاب مثيرة! الـ"ليدي ديانا" هي أجمل امرأة شاهدوها في

حياتهم.. النميمة هي تسليتهم المفضلة.. وصيد الثعالب دليل على الثراء وعراقة الأصل! إنه الشعب الذي يحاول تناسي مشكلة البطالة عن طريق الذهاب للسينما لمشاهدة أفلام تناقش هذه القضية بالتفصيل!! هل هذه هي مواصفات الحياة السعيدة؟!

أولًا.. ليس لديها أي استعداد لتمضية المزيد من الوقت الممل في المركز، إلى أن تبلغ عامها الثامن عشر. ثانيـًا.. إنها لن تتمكن أبدًا من جمع الأربعة آلاف فرنك بلجيكي التي ستحتاجها لتغادر بشكل رسمي.

فهمتُ هذين السببين، لكنني لم أقتنع بالسبب الثالث..

أنا الذي أشغل تفكيرها، وليس شابًا إنجليزيًّا سكرانَ قد تقابله يومـًا ما..

أجد صعوبة شديدة في تصديق ذلك.

عليّ أن أعترف بأن علاقتي بالنساء، حتى قبل دخولي إلى مركز اللاجئين هذا، كانت مضطربة على الدوام.. جميعهن اشتكين من صعوبة طباعي.. وأبرزها الاستخفاف واللامبالاة.

إنها تحبني الآن.. بوضعي الحالي.. لم يسبق لها رؤيتي وأنا أعود من وظيفتي مجهدًا. لا تعرف مني إلا الجانب الحزين في شخصيتي. كيف

ستتصرف معي حين أعود إلى حياتي الطبيعية، وشخصيتي الأصلية، ومزاجي المتقلب الذي يميل للاكتئاب؟ ليس لديَّ أدنى فكرة، ولا هي كذلك. في بعض الأحيان، يمنعني كسلي الشديد من وضع بكرة ورق تواليت جديدة في الحمَّام بدلًا من التي انتهت. هل سترضى بشيءٍ مثل ذلك؟ هل ستتحمل صرير أسناني خلال نومي؟ لم تشعرني بانزعاجها حتى الآن، ولكن هل سيدوم تقبّلها إلى الأبد يا ترى؟ عاداتي منفرة.. أستمتع بالعبث في أظافر قدمي، وأخرج ريحًا كريه الرائحة. ليس لي موعد ثابت للنوم والاستيقاظ. أخاف جدًا من حضور الحفلات الموسيقية والعروض المسرحية، بسبب ما يتخللها من تصفيرٍ مدوٍ.. يذكرني بطلقات الرصاص.. وبشقيقتي التي قُتِلت أمام عيني. حين آكل شرائح البطاطس الشيبسي، أضع كمية كبيرة في فمي، يتناثر نصفها المتكسر في كل مكان. لا أجيد تقدير الكمية الصحيحة التي ينبغي لي إعدادها من المكرونة الإسباجيتي لشخصين. حين يحاول أحد تحليل مواصفات شخصيتي.. أصبح وقحًا وسخيفًا.

ألمح الرجاء في عيني "ليديا". توسلات صامتة، متتابعة.

أغمض عينيّ. ما زلت أراها. الـ"كلوت" المزيّن برسومٍ لنجومٍ وشُهب. ليس نوعي المفضّل من الملابس الداخلية، لكنه يبدو رائعًا عليها.

سقطت تلك الشهب بجوار فراشي منذ ثلاثة أيام (على مربع البلاطة الثالثة، للدقة..) وبدلًا من أن تنهي العالم.. جعلته أكثر جمالًا وروعة..

قالت وهي تواصل نثر نجومها عليّ:

- لقد طلبتُ من الإدارة وسيلة منع حمل..

يبدو أن علاقتنا قد أخذت طابعًا رسميًا، وأن الإدارة عرفت ذلك قبلي!

إنجلترا. لقد تعلمت في الأسابيع الماضية كيف أتوقف عن التفكير في مستقبلي. قمتُ بتأجيل المسألة. في يوم من الأيام، غادرتُ قريتي باتجاه "فيتا نوفا". حينها، كنتُ لا أزال أعرف حلمي، وأسعى لتحقيقه؛ وحين عبرتُ الحدود في "بوبراونيكي"، كانت السعادة تقترب منى أكثر فأكثر. بعد مكوثي هنا طوال هذه الفترة، في انتظار الإذن بالبقاء في بلجيكا، صرت كمن يعاني من غيبوبة.. أعيش الحاضر فقط، دون أي صلة

تربطني بالماضي أو المستقبل. ثم جاءت "ليديا" وانتشلتني مما أنا فيه، وأعادتني إلى الحياة.

لا يمكنني القول إنها على خطـأ في تفكيرها وخطتها وقراراتها.. بل على العكس. ما جدوى بقائنا هنا في انتظار إذنٍ قد لا يأتي؟ ما دمنا نسعى للسعادة، فلمَ لا نلحق بها بدلًا من انتظارها؟

إنجلترا.. الكلمة قاسية ومخيفة.. ولكن لو استمرت كل الدول في رفضنا، فما الخيارات المتاحة أمامنا، سواها؟

ـ الكريسماس!

لهذه الكلمة رنينٌ أكثر قدسية، من فمها العذب.

تضيف بحماس:

ـ الكريسماس هو الوقت الأنسب للقيام بهذه المغامرة. البلد بأكمله في حالة من الكسل والخمول.. أفراد شرطة الميناء يفضِّلون البقاء داخل مكاتبهم الدافئة، مع أكواب الشاي وقطع الكيك، على أن يبقوا في الخارج

لإجراء التفتيش المعتاد. موظفو الجمارك يعملون ببلادة، وكل ما يشغلهم هو التفكير في العودة لمنازلهم وتناول الديك الرومي الشهي..

سوف تبرع هذه الفتاة في العمل بقسم المبيعات، فقد ذكرت مميزات اختيارها للتوقيت، وتعمّدت إغفال سلبيات الخطة.. واقع الأمر أن أيام عثورك على مركب يقبل صاحبها بتهريبك، قد مضت وولّت. صاروا يخافون موظفي الجمارك، وما يفرضونه عليهم من غرامات باهظة إن ساورهم الشك في تسهيلهم لعمليات التهريب والتسلل؛ ويخشون ما يتبع ذلك من تبديد وقتهم ووقت طاقمهم في تحقيقات رسمية، ومحاولتهم إثبات براءتهم من الشكوك والتهم المنسوبة إليهم. إن لمحك الطبّاخ مختبئًا خلف اللحوم، داخل مطبخه، فسوف يقوم هو وزملاؤه بحملك وإلقائك في البحر. يتخلصون منك بهدوء، ودون أن يتسببوا بمشكلة لأنفسهم مع السلطات. وفي كل الأحوال، ليس هناك من يبحث عنك. قد تعثر عليك، بعد فترة، سفينة صيد مثلًا.. تعلق قدمك في شباكها، بينما تسبح بجوارك أسرابٌ من سمك التونة.

هل سبق لكِ رؤية مخزن البضائع في السفن العملاقة عن قُرب؟ بدايّة، إنه ليس مكانًا يمكنك القفز إليه، كما تتصورين؛ إلا ـ طبعًا ـ إن كنتِ

تنوين الانتحار. إنه مكانٌ عميقٌ للغاية، يكفي لتخزين سبع أو أكثر من حاويات البضائع فوق بعضها. إن حالفكِ الحظ ونجحتِ في التسلل إلى ذلك المكان، فإنك لن تجدي إلا مساحة بالغة الضيق، لتختبئي فيها. تنتظرين أن يبدأوا الرحلة. يعلو هدير المحركات فجأة، الصوت مرتفع لدرجة تشعركِ بتهشم جمجمتك. تحركت السفينة. بدأتِ خطوتكِ الأولى على طريق الحرية.. ولكن ماذا بعد ذلك؟ هل أنتِ متأكدة من أن الباخرة تبحر في الاتجاه الصحيح؟ نعم.. صحيحٌ أنكِ كنتِ في الميناء، وقرأتِ بنفسك اسم المدينة الإنجليزية على مقدمة السفينة، قبل أن تتسللي إليها، لكنكِ لا تعرفين خط سيرها.. ستذهب أولًا إلى "روتردام" لتحميل شحنة من جبن الجودا، ثم تواصل سيرها باتجاه النرويج لتوصيل سبع حاويات من جبن الشيدر. تتوقف هناك لبعض الوقت، من أجل إصلاحات بسيطة. تأخيرٌ طفيف. ينزل البحّـارة إلى المدينة لتناسي الخواء الذي يشعرهم به البحر، بالارتماء في أحضان حورياتٍ جميلات. منذ متى وأنتِ تقفين في ذلك الركن الضيق، بين الصناديق بالغة الضخامة؟ هل أحضرتِ معكِ كميّة كافية من الطعام والماء؟ ألم تتجمدي بعد من شدّة البرد؟ هل يعاني جسدكِ من الجفاف بسبب الحرارة المرتفعة للمحركات؟ الأمواج تحرّك السفينة بقوة، وأنتِ تتقيئين. مضت أيامٌ طويلة والأمواج تتلاعب بكِ..

ترفعكِ عاليًا ثم تنزلكِ فجأة.. هأنتِ ترتفعين وتنزلين.. ترتفعين أكثر.. وتنزلين بقوة. في بعض الأيام، يكون الحال أفضل بقليل، وفي أيام أخرى يزدادُ سوءًا. الوضع شديد الصعوبة بالنسبة لإنسانة لا تحب البحر أصلًا مثلكِ. التقيؤ لا يتوقف. سوف تموتين، دون أن يشعر بكِ أحد. لن يسمع صراخكِ واستغاثتكِ أحد.

ـ الأمر باختصار هو أنك لا ترغب في المجيء معي.

ـ أنا لم أقل هذا! أنا ألفتُ نظركِ إلى أنها مخاطرة كبيرة. السفن ليست كسيارات النقل!

ـ أنتَ حقـًا لا ترغب في المجيء معي!!

ـ عليّ أن أفكّـر في المسألة جيدًا يا "ليديا".. ولا وقت لذلك وقد اقترب الكريسماس.. إنه بعد خمسة أيام فقط! اللعنة!

يرتفع بيننا حاجزٌ سميك من الصمت، ينكّرني بمواقف مشابهة انتهت في آخر الأمر بصورة لا تزال تطاردني.. حنائيّ "بيثينا" وهي تخرج من الباب، وتغادرني إلى الأبد.

اعتادت "بيثينا"، مثل "ليديا" تمامـًا، أن تجازف بكل شيء.. بمنتهى البساطة؛ أعتقد أحيانـًا أنني لم أترك بلدي بالضبط، بل تركتها هي تحديدًا.

ـ حسنـًا يا "ليديا".. ما رأيكِ في أن نعبر القناة إلى إنجلترا؟ إنه خيارٌ أسهل وأكثر أمانـًا..

أقول ذلك فقط لأتهرب من الذكريات التي هاجمتني فجأة. تجيبني:

ـ وما رأيك في أن نودّع بعضنا الآن؟

أراقب النجوم والشُهُب التي قبّلتها منذ ثلاثة أيام فقط. الوداع؟ من غيري يمتلك هذه الخبرة الطويلة فيه؟

تلبس بنطلونها الجينز.. غيمةٌ تحجب الشمس.

# ما بعد الكوميديا

تتباين الآراء حول جودة أمواس الحلاقة التي يوفرونها لنا هنا، وهو أمرٌ جيّد، لأنه إن كان لنا جميعًا رأي واحد، لما تناقشنا في المسألة من الأساس، ولاضطررنا إلى الحديث عن أوطاننا. المهم ألا تتكلم في موضوع الأمواس مع الأشخاص ذاتهم لفترة طويلة، وإلا فإن أحدهم ـ على الأرجح ـ سوف يقول شيئًا على نحو:

ـ أمواس الحلاقة في بلدي كانت أفضل من هذه.

ويتحول الحوار إلى سلسلة من الذكريات الأليمة.

يجب أن تُبقي عقلك في حالة نشاط وانتباه دائمين عن طريق إجباره على التفكير في أمور مختلفة ومناقشتها مع من حولك. الخلاف حول أمواس الحلاقة هو إحدى آليات النجاة والبقاء؛ أمَّا الأشخاص الذين يجدون الأمر بأكمله تافهًا، فإنهم قد بدأوا يفقدون الأمل، وباتوا يتعاملون مع كل شيء بقدر من اللامبالاة.

حسم "سيدي" كل هذا الجدل وأثبت أن الأمواس من نوعية ممتازة، حين استخدمها لقطع أحد شرايينه. كان لا يزال يتنفس حين وجدناه. الزفير أكثر بكثير من الشهيق، لكنه يتنفس على كل حال، وعلى قيد الحياة. قام "شوكت"، الذي يجيد استغلال جميع المواقف، بإعلان رهان على نجاة "سيدي" هذه المرة أيضًا من محاولة الانتحار، وذلك مقابل علبة كاملة من السجائر.

خسر "شوكت" سجائره، وفاتَه تقسيم ممتلكات "سيدي"، فلم يحصل على شيءٍ منها، وبات حاقدًا على الجميع. حصل "بروسينتشكي" على أفضل ما تركه الزميل الراحل.. أي قمصانه المشجرة؛ والآن صار بإمكانه أن يلبس هذه الثياب بالغة القبح، حين يذهب إلى بروكسل لتقديم التماس من أجل إعادة النظر في رفض طلبه باللجوء؛ فالمعروف أنك كلما

اهتممت بمظهرك.. كلما ارتفعت نسبة الرفض من قِبَل المسؤولين. حين يراك موظفو مكتب الأجانب وأنت في كامل أناقتك، يقررون أنه لا سبب يستدعي بقاء شخص مثلك، يتمتع بظروف جيدة، هنا. حين ذهب ذلك الكوسوفي لمقابلتهم مؤخرًا، وهو يرتدي جاكيت من الجلد ورباط عنق، وقد صفف شعره بكميات هائلة من الـ"جِل" اللامع.. نظروا إليه بتمعن، وتفحصوا أظافره المرتبة، المقصوصة بعناية.. ثم أصدروا قرارهم بأن يُرَحَّلَ خلال أسبوع بالضبط. وضعوه ـ بكامل أناقته ـ على متن طائرة، في رحلة طويلة، يمكنه خلالها الاستمتاع بمناظر منطقة "آردين" التي سيحلِّق فوقها.

يدّعي "مقصود" بأن هناك بعض الحيل التي تستطيع من خلالها تجنُّب الترحيل بهذه الطريقة:

ـ الحكومة البلجيكية لا تملك ميزانيةً تغطي تكاليف إعادة كل هذه الأعداد من اللاجئين إلى بلدانهم على طيَّارات "ليرجيت"، ولذلك فإنهم يضعونهم على طائرات عادية، بين الركاب المتجهين إلى تمضية إجازاتهم في تلك الدول. ما إن تبدأ عملية الإقلاع، عليك بأن تصرخ بأعلى صوتك، وتصيح بغضب، وتبدأ بالشكوى والتذمر بشأن كل شيء.. تصرّف بطريقة

هستيرية، وتسبّب في إزعاج طاقم الملاحين والضيافة، وإثارة ذعر الركّاب.. وبعدها سيقوم الطيّار بطردك وإعادتك إلى المطار ثانيةً. في المحاولة التي تليها لتسفيرك، قم بتكرار التصرفات ذاتها، بالتفاصيل ذاتها، وعندها ستدرك شركة الطيران بأن سُمعتها في خطر، وأنها سوف تخسر زبائنها، وتقرر أن تمنعك من السفر على رحلاتها. ستطلب منك تدبّر أمر عودتك إلى بلدك.. امنحهم وعدًا بذلك، بكل سرور.

المستفيد الأكبر من موت "سيدي" هو "بايوس"، شريكه في الغرفة. أصبحت الحجرة الآن له وحده بالكامل.. صحيح أن الوضع لن يطول، ولكن لديه بعض الوقت للاستمتاع بها بمفرده.

وجود "بايوس" غير ملحوظ في الأساس، نادرًا ما يشارك في أي نقاش، ولا يميل إلى الشكوى. لا يكره أي أحد سوى نفسه. إنه مطلوب في بلده، حيًّا أو ميتًا، بعد أن تمّ اتهامه بمحاولة قلب النظام عبر رسائل سرّية قيل أنه كان يضمّنها الكلمات المتقاطعة التي تولّى تصميمها لمجلة الجامعة. ازدادت

شراسة الحكومة تجاهه عقب تصريحه بأنها لا تجد ما تفعله سوى حل الكلمات المتقاطعة!

حكاية "بايوس" تثير دهشة مكتب الأجانب.. فتفاصيلها غير المعقولة حقيقية فعلًا، وأحداثها غير المنطقية.. مترابطة، وليس بإمكانهم ترحيله بحجة تناقض أقواله أو اختلافها. بعد مباحثات شاقة ومداولات مرهِقة، لم يستطع عدد من الموظفين التوصل إلى قرار حاسم بشأن حالته، فيما امتنع الباقون عن المشاركة في اتخاذ القرار اللازم من الأساس. هذا هو الشهر الرابع عشر الذي يمضيه هنا كلاجئ، لكن حالته النفسية مستقرة، ولا تصدر عنه تصرفات تميل إلى الجنون كغيره ممن مرّت عليهم أشهر طويلة هنا؛ والسر في ذلك هو أنه يتعمّد أن يتصرّف كما لو كان في إجازة، أو كما لو أنه مكتشف أو باحث يسعى إلى تحليل الوقائع من حوله. إنه يقضي ساعات طويلة يوميًا وهو يدوّن ملاحظاته على الورق، مكوِّنًا منها "دليل الكوكب الرائع: فندق بروبلمسكي (الغرباء)". إنه كتاب الرحلات الأكثر تميزًا وجودة.

"دليل الكوكب الرائع: فندق بروبلمسكي (الغرباء)" هو الكتاب الأول من نوعه في عالم مراكز اللاجئين، والذي يقدم لكم:

ـ وصفًا جذابًا لكل الجوانب المثيرة في المركز.. مثل وحدات الدُش والاستحمام الشهيرة، والأِسرّة ذات الطابقين.

ـ آراء جديرة بالثقة حول أفضل المباني في المركز، وشرحٌ تفصيلي لقاعة التليفزيون، ومكتب الاستقبال، وحجرات الواجبات المنزلية المخصصة للأطفال.. وغيرها.

ـ تعريف شامل بالحمَّامات، ومكتب الأجانب، ومواني التسلل إلى حاويات البضائع.. وعدد من الأماكن التي تستحق الزيارة.

ـ خرائط ملوّنة لكافة المواقع الشيّقة، وتقييمها من نجمة واحدة إلى خمس نجوم.

ـ معلومات مفيدة، ونصائح، لن ينتهي بهم الأمر كمقيمين غير شرعيين، تتضمن أرقام تليفونات كبار رجال المافيا.

لا يتضمن الكتاب أي شبكة للكلمات المتقاطعة.

لا بدّ أن مَثَل "بايوس" الأعلى هو الكاتب الفرنسي القديم "زافيير دو ميستر"، الذي عوقب بالإقامة الجبرية في منزله لاثنين وأربعين يومًا، ألّف

خلالها كتابه الشهير "رحلة داخل حجرتي". في بعض الأحيان، يمكنك القيام برحلة من خلال الكلمات فقط.

يمكن اعتبار دليل "بايوس" السياحي، مجرّد فقرة ساخرة ضمن عرض مسرحي مسلٍ، لكن الحقيقة أنه يتعامل مع كتابه بجدّية تامّة.

تصرفات "بايوس" غير متوقعة، على كل حال. حين يذهب للاستحمام، يلبس في قدميه شبشب فاقع الصُفرة، من ذلك النوع الذي تفضّله النساء للفت الانتباه إلى أرجلهن؛ وما إن يقف تحت ماء الدُش، حتى يرتفع صوته بالغناء، كما لو أنه في عُطلة مريحة؛ والواقع أنني لم أقابل في حياتي شخصًا يستعرض ثقافته الغنائية في عالم الأوبريتات وهو يستحم عدا "بايوس"! في أشهر الصيف، حين تسطع الشمس بقوة، يفرد فوطته على أسمنت الساحة الداخلية للمركز، ويستلقي عليها باستمتاع بالغ. يبدو أن ذلك يساهم في تحريك ساعات نهاره بشكل أسرع. في دليله السياحي، يوضّح للقارئ الجوانب والزوايا المختلفة للمركز التي تحصل على القدر الأكبر من أشعة الشمس، بحسب فصول السنة؛ أمّا محبّو الهدوء فبإمكانهم الاطّلاع على الصفحة رقم 40، والتي يورد فيها ـ بشكلٍ مختصر ـ أفضل الأماكن داخل المركز التي تتوافر فيها هذه الصفة. لم

ينسَ أيضًا السائح الباحث عن الجنس، ولذلك ذكر له "آنا" وبيّن له بالتفصيل كيفية الوصول إليها.

أصدر "بايوس" ثلاث طبعات منقّحة من مؤلَفه الشامل، قام بطباعتها على الأجهزة الخاصة بدورات دراسة الكمبيوتر في المركز، لكنه فشل في تسويقها. أعتقد أنني الأحمق الوحيد الذي أقبل على قراءة الدليل، ودفع مقابله علبة سجائر كاملة. الواقع أنني اضطررتُ لقراءة هذا الشيء، وذلك بعد أن خصّني بالإهداء. إنه يفكر في مشروع جديد هذه الأيام، وهو إصدار بطاقات بريدية تحمل صورًا فوتوغرافية للمردز، يمكن إرسالها للأهل والمعارف في الوطن، بدلًا من محاولة شرح شكل المكان لهم.. وهي مسألة على قدر من التعقيد، في الحقيقة؛ لكن المشكلة التي تعرقل سير المشروع حاليًا هي عدم توفُّر كاميرا رخيصة. أنا أعرف تلك المسألة وأتفهمها جيدًا.

تصرفات "بايوس" غير الطبيعية تثير انتباه الجميع. يعتبره الألبان غبيًا، ولذلك فإنهم لا يفكرون ـ مجرّد تفكير ـ في ضربه أو إيذائه. "آنيك"، بدورها، تجده غريب الأطوار. إنها تقدّم دعمًا نفسيًا لنزلاء المركز، عصر كل يوم خميس، من الثالثة إلى الرابعة. تستقبل المترددين عليها في

حجرة مدهونة بألوان يُفترَض أن تكون مريحة، إلا أنها تشعرني بألَم في رأسي. تضم الغرفة مقعدًا يؤلم الظهر؛ وتنساب فيها موسيقى جميلة، هدفها أن تنسيك مشكلاتك. عينا "آنيك" فائقتا الجمال، تغطيهما عدستا نظَّارتها الطبية.. فتبدوان كقطعِة فنيةٍ رائعة داخل صندوق زجاجي. ولما كان عملها كطبيبة نفسية يستلزم منها أن تواجهك بحقيقتك كما هي، دون رتوش، فإن ذهابك إليها من تلقاء نفسك يُعدّ نوعـًا من الجنون.. لكن عدم وجود شيء آخر تقوم به في هذا المكان، يجعل زيارتها مسليّة إلى حدّ ما. أكذب عليها كثيرًا، وأحاول أن أتناسى أنها تتعامل باهتمام ولطف مع الجميع، وليس معي فقط. يمكن للمسلمين، وغيرهم ممن يؤمنون بأن التحدث مع النساء ينتقص من قيمة الرجل، أن ينتظروا زيارات "آندريه"، الذي يأتي للمركز كل ثلاثاء. لـ"آندريه" أيضًا نظَّارة طبية، ولكن على عكس زميلته فإن عينيه باردتان. أفضّل زيارتها. ذهبتُ في المرة الأولى بسبب إحساسي بالضجر، ليس أكثر. في المرة الثانية، كنتُ مدفوعًا برغبتي الجنسية فيها. زياراتي التالية، التي أصبحت روتينـًا يتكرر كل أسبوع، سببها الوحيد هو شعوري بالأسى. تخبرني دائمـًا بأنها تعجز عن مساعدتي.. ما يزيد من بؤسي، ويجعلني أواظب على لقائها المرة تلو الأخرى. بعد حوالي سبع جلسات، كررتُ فيها كلامي عن مستقبلي المظلم،

وخشيتي من أن أضطر للعودة إلى بلدي، حيث أتوقع قتلي.. نصحتني بأن عليّ أن أتقبّل فكرة موتي، وأن أستعدّ لها. مساء كل خميس، تحاول "آنيك" أن تؤهلني لفكرة موتي المحتوم. مساء كل خميس، أشعر بانتصاب لا أملك السيطرة عليه.

تمام الساعة الخامسة في المركز، هو موعد وجبة العشاء. نتناول يوم الخميس مكرونة نودلز. كلمات "آنيك" عن تقبلي للموت، تجعلني أيضًا أكثر تقبّلا لتلك المكرونة الرديئة، شديدة اللزوجة.

رغم أن الكثيرين رأوا في البداية أنني ضعيف الشخصية لاعتمادي على الهراء الذي تردّده أخصائية نفسية، إلا أن عددًا منهم بدأ يحرص على زيارتها، وأصبح جدولها مزدحمًا، لدرجة احتياجي إلى حجز موعد مسبق معها؛ أمَّا ما شجعهم على ذلك فهو قيامها بحسم مسألة "بايوس"، وإعلانها بوضوح أنه مجنون ومختل عقليًا. صاغت ذلك في عبارات منمقة، بالطبع، تتناسب وعقلية موظفي مكتب الأجانب. الجنون مرض. هناك قانون ما في البند السابع من النقطة الثامنة في ملحق ما يتعلق بملحق آخر صدر لتنظيم شؤون الترحيل يفيد بمنع ترحيل اللاجئين الذين يعانون من أيّ مرض خطير.. وباختصار فإن "بايوس" قد حصل

أخيرًا على ما كان يسعى إليه منذ البداية. لديه الآن مستقبل مريح.. يعجّ بممرضات لطيفات، يكرهن وظيفتهن، لكنهن يحرصن على الاعتناء بالمرضى، وإعطائهم مختلف أنواع الحبوب والأقراص والكبسولات، منذ اللحظة التي يتناولون فيها إفطارهم صباحًا، كي يبقوا في حالة أقرب للغيبوبة. سوف يمضي أيام الأحد وهو يسير ببطء في حديقة المصحة العقلية، مرتديًا البيجامة. يمكنه أن يحصل على بعض السجائر، نظير قيامه ببعض الأعمال اليدوية، مثل صناعة مشغولات المكرمية.. قد لا تبدو هذه حياة عظيمة، ولكنها أفضل بكثير من عودته إلى موزمبيق.

بالنسبة للأشخاص الذين لم يعد لديهم ما يخسرونه، أو الذين وجدوا أن عَقد الخيوط بطريقة جمالية لصنع مكرميات هو حلّ أفضل من الاستشهاد، فإن السير على خُطى "بايوس" يعدّ خيارًا منطقيًا. ذهب "شوكت"، الذي سيبدو شكله جيدًا في قميص المجانين، ذي الأربطة، إلى "آنيك" وأعلن بصرامة:

ـ أنا مجنون.

لكن خطته لم تنجح.

"إيفينيي"، من جانبه، قرر استخدام تكنيك مختلف. قال لها خلال الجلسة إن مشكلته الرئيسية هي أنه طبيعي تمامًا؛ لكن هذه الخدعة لم تنطلِ على "آنيك".

في الغد، سيأتي باص ليحمل "بايوس" إلى المصحّة. سنساعده على وضع قميصه، وملابسه الداخلية في حقيبة، وعند الأسوار الشائكة سنقف ونلوّح له مودّعين إلى أن يختفي عن أنظارنا. خلال ذلك كله، سيبقى "بايوس" مبتسمًا طوال الوقت.. تلك الابتسامة التي لا تفارق شفاه المجانين. أمّا نحن، فسنعود إلى إحساسنا بالملل، واقتلاع الحشائش.. وضرب بعضنا من فرط الضجر.. سوف نشعر بالملل من الملل!

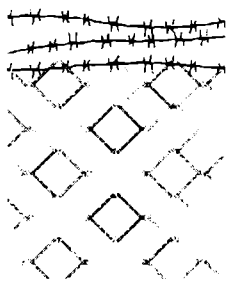

# "روكي"

## الجزء الثالث

الكثير من السعادة أمرٌ ضارّ، في الواقع.

المساعدة في عملية ولادة "مارتينا" لطفلها ـ الذي أودعه المغتصب رحمها ـ كانت أسهل بكثير ممّا توقعت. تمثلت المشكلة الحقيقية في قتل ذلك الصغير، لاحقـًا.

احتاجت "مارتينا" وقتـًا طويلًا لتقرر بأنها لا ترغب مطلقًا في الاحتفاظ بالجنين.. كان قد مرّ على حملها نحو سبعة أشهر. عقب اكتشافها

أنها حبلى، أصيبت بحالةٍ من البرود، جعلتها تتصرف كما لو أن كل شيء على ما يرام. تبعت ذلك مرحلة أخرى هي صحوة غريزة الأمومة بداخلها، والتي جعلتها تهتم بتجهيز عشها لاستقبال وليدها. كما دفعتها غريزتها تلك لبعض التصرفات غير المألوفة، كتقشير الجير عن الحوائط، ولعقه بشغف! عاودها بعدها الإحساس بالفتور، والنفور من الطفل القادم.

خلال انشغالها بأمر التسلل إلى بلجيكا، وما استغرقه إتمام العملية من وقت، نسيت "مارتينا" تمامًا مسألة الإجهاض؛ وبعد أن استقرت حياتها في مركز اللاجئين، توصلت أخيرًا إلى قرارها الحاسم بعدم رغبتها في المولود. كان الوقت قد فات، ولم تستطع العثور على طبيبٍ يغامر بسمعته ونجاحه من أجل تخليصها من جنينها. يضمّ المركز العديدات ممّن يُجدن ممارسة الطب الشعبي، ولديهن وصفات للتخلص من كل شيء.. بدءًا من الزكام وانتهاءً بالأورام، ومرورًا بالأجنّة؛ لكن بذرة الشيطان هذا لم يستجب لأي وصفة، وظل ينمو ويكبر.. إلى أن حلّت ليلة الأربعاء، وقرّر أن يغادر رحمها.

أحاطت "مارتينا" خطتها بقدر من السرّية، إذ ليس فيها ما يستدعي الفخر أو المباهاة، ولكنني، بالإضافة إلى عدد قليل من النزلاء، كنت على علمٍ

بما تنوي فعله. وعدناها بتقديم المساعدة في الوقت اللازم. أهمّ ما اتفقنا عليه جميعـًا هو الحرص على عدم وصول خبر مخاضها إلى أيّ من موظفي الإدارة، حتى لا يقوموا بنقلها إلى المستشفى، حيث سيحافظون على حياة المولود. قرر بعضنا الوقوف في الممرات، لشَغل الحارس الليلي عمّا يحدث بالداخل، وإن استلزم الأمر تشتيت انتباه الموظفين، فإن "مقصود" على استعداد دائم لتمثيل دور المتألم الذي يعاني من الزائدة الدودية. أمَّا عن خبرتي أنا في عمليات الولادة، فتنحصر في أنني قمتُ بتوليد إحدى بقراتنا، ذات مرة؛ لكنني تعمّدت ألّا أذكر لهم بأنني أجيد ذبح الدجاج، حتى أتجنّب إلحاحهم عليّ بالتخلص من الطفل. "ليديا"، من جانبها، لم تشهد في حياتها سوى ولادة أمها لها، على الأغلب! اعتمادها الوحيد هو على حدسها الأنثوي. على كل حال، إنها لا تملك إلا المساعدة، كونها زميلة "مارتينا" في الغرفة.

الواقع أن بعض من حولنا على دراية كافية بالمسألة، لكننا أحجمنا عن طلب مساعدتهم، لأسبابٍ مختلفة؛ فالمرأة الصومالية من مبنى (6)، على سبيل المثال، لديها عدد كبير من الأبناء، حتى ليخيّل إليك أنها تخرجهم من جسدها بضغطة خفيفة على الرحم، لكنَّها إن علمت بنيّتنا في التخلص من الصغير، فإنها لن تقبل المشاركة في الموضوع من الأساس.

"ديمتري" هو الحلقة الأضعف في فريقنا. لمّا كان والد الطفل ألبانيًا، فقد أصرّت "مارتينا" أن يكون قاتله من الجنسية نفسها، ووقع اختيارها على "ديمتري". تلك فكرتها عن الإصلاح، على الأرجح. قمنا بإغرائه بالمال (لم تكن السجائر وحدها كافية).. وبعد عدّة محاولات لإقناعه، أعلن موافقته أخيرًا.

ليلة الأربعاء، أيقظتني "ليديا" من منتصف حلم يدور في جبال تغطيها الثلوج. خلال عشر دقائق، تجمّع الفريق بأكمله، ومعنا دِلاء وأدوات تنظيف.

لطالما سمعتُ خالاتي وعمّاتي وهن يتبارين في وصف آلام المخاض التي مررن بها.. وما إن يبدأن في سرد تلك القصص، حتى يغادر الرجال المنزل، للمحافظة على إيمانهم بأنهم الجنس الأقوى.. تقريبًا! استمرّت عمليات الولادة لعدّة أيام، في بعض الحالات، فقدن خلالها كميات كبيرة من الدم، لكنهن لم يستسلمن وواصلن عملية الدفع لاستقبال صغارهن.. حتى وإن تسبّب ذلك في تمزّق أجسادهن.. كنّ على استعداد للموت في سبيل المحافظة على أرواح مواليدهن. عجزتُ دائمًا عن فهم هذه النقطة تحديدًا. تتفوق عمتي، أخت أبي الكبرى، على بقية نساء العائلة في هذا

المجال، لأنها ولدت ابنها (البغيض جدًا) بمفردها، خلال وقت الفيضان، وهي تجلس على غصن شجرة. أمي كذلك مرّت بمعاناة بالغة أثناء ولادتها لي.. وهو أمر تتفاخر به على صاحباتها دومًا. في اليوم الذي يلي إضافة فم جديد للعائلة، تغادر الوالدة فراشها وتتجه إلى الحقل، لمواصلة عملها المعتاد في الزراعة. أعرف كل هذه الحكايات.. سمعت بعضها، وشهدت بعضها الآخر، لكن "مارتينا" تختلف عنهن تمامًا. لم تصدر عنها آهة خفيفة ولا صيحة مرتفعة.. ولم تستمر ولادتها لساعات وساعات.. إنها امرأة تتعجّل التخلّص من جنينها.. الأمر واضح جدًا! لم تستغرق المسألة أكثر من تسعين دقيقة فقط.. بعدها كنت أقف حاملًا الصغير بين ذراعيّ. إنه صبيّ. لم أخبر "مارتينا" بجنس المولود. لم يكن ذلك ليغيّر مشاعرها.

تبادلتُ النظر معه. أنا أوّل من يراه هذا الصغير، وسوف يكون "ديمتري" هو الأخير. انزوى "ديمتري" في ركن من الغرفة. وجهه المشرب بالحُمرة، أمسى شديد الشحوب فجأةً. ناولته الطفل. إنه المسؤول الآن.

كان عليه أن يفكّر جيدًا، ويضع خطة محكمة للتخلّص من الصغير، وبخاصّة بعد أن وعدناه بمبلغ محترم، لكنه عوضًا عن ذلك حمل الطفل ونظر إلينا بعينين زائغتين وهو يسألني عمّا ينبغي عليه فعله.

يمكنه أن يلوي عنقه، أو يكتم أنفاسه بوسادة، أو يخنقه بيده.. لماذا يسألني أنا تحديدًا؟

قلت له بصبرٍ نافد:

ـ ماذا تنتظر؟ هل ستنقله إلى العالَم الآخر أم لا؟

ولكن بدلًا من أن يجيبني رجلنا الشجاع، انخرط في بكاء مرير، وعوضًا عن أن أشعر بالحزن تجاه الأم، شعرت بأسى بالغ تجاهه هو!

لدينا مشكلة صغيرة.. ليس بمقدوره ارتكاب هذا الفعل، لأن المولود يذكّره بطفله، الذي تركه في بلاده حين اضطر للفرار إلى هنا. حكى لي قصته بالكامل، ولم يغفل عن ذكر أدق التفاصيل! لا أمل في "ديمتري". قبل أن أجد فرصة للتفكير في كيفية التخلص من المأزق الذي وجدنا أنفسنا فيه، كان الصغير قد عاد إلى ذراعيّ مجدّدًا.

ـ لن أفعل ذلك! هل تسمعون؟ كنت أتعذب لوقت طويل عقب أن يجبرني جدّي على ذبح دجاجاته، وأنا صغير.

يبتسم الطفل. لقد سمع نكتة للمرة الأولى. هل يبتسم المواليد حقًا، أم إنها حركة لا إرادية؟ في رأيي أن على الإنسان خوض العديد من التجارب المريرة، قبل أن يتمكّن من الابتسام والضحك.

ينتهي إحساس "ديمتري" بالصدمة، ويتمالك أعصابه. فجأة، ينهال على "مارتينا" بالسباب والشتائم، ويقول لها إنه ليس مسؤولًا عمّا حدث لها.. ليس هو من اغتصبها، وهذا الصغير ليس ابنه؛ وأيّ منطق يجعله يتحمّل خطأ شخص آخر، لمجرّد أنه ألباني مثله؟

حسنـًا.. كان محقـًا بالطبع، لكنني أردته أن يخرس ويقتل الطفل وننتهي من المسألة. يبدو أنني من تورطتُ في التخلُّصِ منه الآن!

ارتفع صوت المولود بالبكاء.. وهو آخر ما نرغب فيه في هذه الظروف. سوف يستيقظ النائمون في الحجرات المجاورة، وستنهار خطتنا في لحظات. ليس هناك سوى حل واحد.. "مارتينا" وحدها يمكنها القيام به. عليها أن تُسكِت الصغير بإرضاعه. يجب أن يهدأ ذلك المخلوق التعِس.

تلقمه ثديها. يشبهان الأعمال الفنية في عصر النهضة.. إنهما العذراء وابنها.

"ديمتري" يتقيأ داخل دلو من شدّة اضطرابه، بينما يحاول "مقصود" تهدئته. "مارتينا" مستمرة في إرضاع ابنها، "ليديا" تطلّ برأسها خارج

الغرفة، لتطمئن على الأوضاع في الممر. كل شيء على ما يرام. أدخِّن سيجارةً.. أشعر أنني في أمسّ الحاجة إليها. فجأةً، يصبح كل شيء هادئًا.. بإمكاننا الآن أن نفكّـر فيما نحتاج إلى عمله، طالما أن الصغير صامت ولا يبكي. نتوصَّل إلى أن "إيجور" هو الوحيد الذي يستطيع حسم المسألة.

أعود إلى حجرتي. أوقظ "إيجور" وأنا أرتعدُ خوفًا. أشرح له القصة، وأتوسل إليه أن يساعدنا.

يقف "إيجور" بجوار فراش "مارتينا"، وهو لا يزال يغالب النوم. نظراته باردة. جليدية. يقوم بطقطقة مفاصل أصابعه. إنه البطل الذي سيحلّ المشكلة. ينام الصغير، فنحمله ونضعه بين يدي "إيجور". ليته ينهي كل شيء بسرعة. جانب مني يشعر ببعض الارتياح لأن "إيجور" سينفِّـس عن شيءٍ من غضبه المكتوم، من خلال قتل الطفل. سيهدأ قليلًا، وسأشعر أنا بالأمان، ولو لهذه الليلة فقط.

يقف ثابتًا في مكانه، ناظرًا إلى الطفل. إنها الغلطة نفسها التي ارتكبتها قبله. مرّت خمس دقائق، تلتها خمس أخرى. ربما كان يستجمع قواه. مرت ربع ساعة كاملة. أصبحتْ نصف ساعة. الصمت يسود الحجرة. لا يجرؤ أيّ منا على الكلام. يعيد المولود إلى أمه. يضعه فوق جسدها، ويقول بصوت مشروخ:

ـ آسف..

اضطرت "مارتينا" للقيام بالمسألة، بنفسها، في نهاية الأمر. قتلها لطفلها بيديها، هو أفضل انتقام ممن قام باغتصابها. رأينا جميعـًا أنه من الأفضل تركها بمفردها مع ابنها. يمكنها أن تطرق بابنا، متى ما انتهت.

كان "مقصود" قد نجح في تهريب زجاجتي خمر رديء الطعم إلى غرفته. نجتمع هناك.. "إيجور" و"ديمتري" و"مقصود" و"ليديا" والزجاجتين وأنا. يأخذ كل منا رشفة، ثم يناول الزجاجة لمن يليه..

تدق "مارتينا" الباب، ونحن نوشك على إنهاء الزجاجة الثانية.

يذهب "إيجور" معها. يلفّ الطفل بإحدى جرائده الأسبوعية، ويحمله إلى قسم الاستقبال في مدخل المركز. وُلِد الطفل ميتـًا.. حالة اختناق بالحبل السُرّي.

كانوا سيسمّونه "ابن حرام".

# قرار التجنيس رقم 454 5KF SD 45b

# الروائي "لويس بول بوون" يلقي نكتة في البار

مكتبة
t.me/t_pdf

دون أن تتعمّـد التنصّت، تستمع طوال الوقت إلى أمور كثيرة؛ وأغلبها أشياء لا تهمّك في الأساس. لا بدّ أنك سمعت مثلًا عن أن ذوي البشرات الداكنة لهم أعضاء طويلة. الناس يحبّون التهويل، ويعشقون أن يصنعوا "من الحَبّة قُبّـة"، كما يقولون.

عرفتُ أصل الحكاية.. ألعبُ كرة القدم مع أصدقائي من البار، منذ حوالي أربعة عشر عامًا. انضمّ إلينا مؤخرًا لاعب زنجي، يحبّ أن يستحمّ

عقب المباراة، مثلنا جميعًا. بشكِل عامّ، ليس هناك أيّ أسرار بين الرجال؛ السرّ الوحيد الذي يحتفظ به أحدهم لنفسه، دون إطلاع صديقه عليه.. هو ذلك المتعلق بخيانته له مع زوجته. لا يخجلون من شيء حين يكونون معـًا.. يرون مؤخرات بعض، وأعضاء بعض.. لا داعي للحرج، ولا للتفاخر. على كل شخص أن يتقبّـل المعدّات التي خُلِق بها. عمومًا، صار بإمكان أطباء التجميل أن يصنعوا لكل شخص الحجم الذي يحلم به، لكنهم ما زالوا عاجزين عن صناعة عقول تفكر على النحو السليم، بطبيعة الحال.

رغم كل ما قد تسمعه، فإنك تفضّل دومًا أن ترى المسألة بعينيك، لتتأكد من صحّتها؛ وهكذا تضبط نفسك متلبسًا بمراقبة ذلك الزنجي، وما إن يقف تحت الدُش، حتى تجتاحك دهشةٌ غير مسبوقة.. "سو" ـ وهذا هو اسمه ـ لديه عُـدّة عجيبة! ينعقد لسانك.. هذا كائن خرافيّ ولا شك! عليك أن تعرف يا "لود" كيف يمكنك أن تصبح مثله.. تسأل رفيقك الجديد في الملعب عن إمكانية الحصول على صاروخ مثل الذي يمتلكه، وتحاول أن تتأكد منه إن كان ما لديه ربّاني فعلًا.. تعترف بأن بضعة سنتيمترات إضافية هي أمر مرحَّب به طبعًا. يجيبك جندي المدفعية بأنه يمكنك تعليق قالب حجري في الجزء المقصود، إلى أن يصل للطول الملائم. ها قد حصلت على التوضيح الذي تحتاجه. ما زال لديك بعض القوالب

الحجرية المتبقية من بنائك للبيت. خلال دقائق، كنتَ تسارع بربط أحدها في جسدك. تقول لنفسك:

ـ لا بأس ببعض المعاناة.

تسير على ذلك النحو، لأسبوع كامل. تسألك زوجتك عن السرّ وراء ما تفعله. تخبرها بأن ذلك يؤدي لاستطالة العضو. البريق الذي يغزو عينيها ـ اللتين لا تزالان تتمتعان بجمال فتّان ـ يجعلك تتشجع وتضيف قالبًا آخر. لن تظهر النتيجة في يوم وليلة.. لم تُبنَ روما في يوم واحد.

بعد ثلاثة أسابيع، لم تتغير الأبعاد! لا يزال الحجم كما هو.. لكنه أصبح شديد السواد.

## الأجراس تدق

يبدو أن الكل مقتنع بأنني كاثوليكي حقًا، كما أدّعي؛ والحقيقة أنني لم أكن أكذب تمامًا حين قلت إنه قد تمّ تعميدي، ذلك بأنني أحب أن أغطس رأسي في الماء.. على كل حال، وبمناسبة الكريسماس، أُقيم حفل عشاء في قاعة الطعام.. "هللويا"! وضعوا لنا بعض الموسيقى.. صحيح أنها مجرد بعض أغاني عيد الميلاد الرديئة، والتي يوزعونها كأسطوانات مجانية في السوبرماركت عند شراء كيلوجرام كامل من البُن، لكنها

موسيقى في نهاية الأمر. تكوّن العشاء من الكاكاو الساخن وبعض الفطائر الحلوة، التي تبرّع بها أحد المخابز القريبة، تطبيقـًا لفكرة العطاء. كانت الفطائر شهية جدًا. تناولتُ ثلاثًا منها، وفشلتُ في الحصول على الرابعة. أنهيتُ كوب الكاكاو حتى آخر نقطة. تلك الأكواب الكبيرة هدية من إحدى الشركات، بسبب عيبٍ غير ملحوظ في التصنيع. كُتِبَ عليها عبارة "الأمان أسلوب حياة" بأربع لغات. لديّ متسّع من الوقت للتفكير في معنى تلك الجملة. إنها غريبة، وبشعة، وتسيطر على تفكيري.. "الأمان أسلوب حياة".. تخطر "ليديا" على بالي.. إنها بداخل حاوية الآن. تُرى هل أبحرت السفينة، أم أنها لا تزال في الميناء؟

نشعر بمزيج من الدهشة والسعادة الغامرة حين نكتشف أن الإدارة قد جلبت لنا صندوقًا من خمر التفّاح؛ أقول لنفسي بإنني سأواجه مشكلة كبرى لو أن المسلمين أحضروا صندوقين من الخمر في أحد أعيادهم.. سأضطر حينها لتغيير ولائي وإعلان انضمامي لدينهم على الفور!

أحب المشروبات الكحولية، فلديها قدرة فائقة على طمس شخصيتك الحقيقية، وإظهار أخرى مكانها. يتناول الأفارقة كأسين من الشراب، ثم تعلو أصواتهم فجأة بالغناء.. "أيتها الليلة المقدّسة". تهزّ النساء أردافهن

كاملة الاستدارة، بينما يصفق بقية الحضور. أتخيل مشهدًا مقاربـًا لهذا في دُور المسنّين. يضعون قبعات ورقية ملونة على رؤوسهم ذات الخصلات البيضاء الخفيفة، وأمامهم أنواع مختلفة من المهدّئات والمسكّنات.. كلما ابتلعوا واحدًا منها، تزايد شعورهم بالإيمان العميق.

في ذلك الصباح، دفنـّا "سيدي" في قبر لن يزوره أحد. بجواره، كان مولود "مارتينا" قد بدأ يتحلل. كواسر الأمواج في البحر بيضاء اللون. الكريسماس الذي حلمت "ليديا" برؤيته.. أبيض اللون. اشتقتُ إليها. أفتقدها، وأفتقد الكاميرا الخاصة بي. يرتجف جسدي بقوّة.. قد أعجز مستقبلًا عن التقاط الصور، دون تثبيت الكاميرا على الحامل. قد أعجز عن التقاط الصور. قد أعجز عن فعل أي شيء.

في هذا اليوم الهادىء، لم يفكر "إيجور" في الملاكمة. كل ما سيطر عليه حينها هو الموسيقى. اعتلى "إيجور" ترابيزة الطعام، ورفع إحدى ذراعيه عاليًا، وبدأ يغني ترنيمة "نجمة لامعة في سمائنا".. امتلأ صوته العميق بحزن دفين. لم نتخيل أن له هذه القدرة الرائعة على الغناء. انساب الأسى منه وهو يردد الكلمات بالروسية. سرعان ما ارتفعت أصوات بقية الروس، واستكملوا معه الترنيمة. وجدتُ نفسي أفكر في "ليديا" وثيابها الداخلية

المزينة بالنجوم. سوف تكتب لي خطابًا إن وصلت إلى إنجلترا بالسلامة. سوف تنتظرني هناك. عليّ فقط أن أستجمع شجاعتي للحاق بها، وسط حاوية معبأة بقطع السيراميك. لقد رحلت "ليديا" دوني، وخططت لمستقبل لستُ فيه. إنها تبحر الآن.. تؤرجحها الأمواج إلى إنجلترا. لقد رأت شيئًا من العالَم، واستنشقت هواءً مختلفًا.

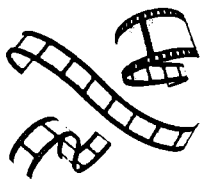

# نيجاتيف

يقول المصوّر:

ـ تصرّف كما لو أنني غير موجود.

أكرهه جدًا.

هناك نوعان من المصورين الصحفيين؛ أصحاب "كانون"، وأصحاب "نيكون". الطرفان لا يمكن أن يتفقا أبدًا، كلاهما في حالة عداء أبدي، تأييدًا لنوع الكاميرا التي يستخدمها.

تتدلى كاميرا "نيكون" على بطنه السمين، ما يجعلني أرتاب في قدرته على الفهم والتصوير. بالإضافة لذلك، فإنه يستخدم الأبيض والأسود في أعماله. ألمحُ طرف الفيلم.. Ilford XP2, 400 ISO. أتأكد على الفور من أنه أفّاق، وليس فنانًا حقيقيًا.. أحد اولئك المدّعين الذين يقضون ساعات طويلة في وصف عبقرية الرسّام "ديفيد هوكني"، بمصطلحات معقدة لا يفهمها أحد. أنا على استعداد للرهان بعلبة سجائر كاملة على هذه النقطة تحديدًا. إنه أحد من يطلقون على أنفسهم لقب "مبدعين"، الذين إذا احتاجوا للمال هرعوا لتكبير بعض الصور التي التقطوها، وقاموا بتعليقها في أي صالة عرض، ونظموا معرضًا خاصًا لصفوة محبّي الفنون.

يحب الناس، هنا في المركز، حضور أي مصوّر.. فذلك يتيح نوعـًا من التغيير ولو لوقت قصير. يمكن للنزلاء أن يفعلوا شيئًا مختلفـًا، بدلًا من التدخين بجوار المدفأة. "آسيا"، صاحبة المؤخرة الضخمة ـ التي تحتاج لفتحة عدسة كبيرة لتصويرها كاملةً. قامت بالاستحمام هذا الصباح، واستهلكت كل الماء الساخن، ثم ارتدت أكثر ثيابها بهرجة. ربما كان من الأفضل أن تكتفي بخلع ملابسها الداخلية، وتصوير أعضائها المبتورة المشوّهة، حتى يفهم الناس سبب حاجتها للبقاء هنا كلاجئة. ستحرّك الرأي العام بتلك الصورة.

قام الجميع هنا بغسل وجوههم وتلميع أحذيتهم.. وأين ستوضع تلك الصور التي يظهرون فيها بتلك النظافة والأناقة، في نهاية الأمر؟ على قبورهم بكل تأكيد. حتى "آنا" فعلت مثلهم، واستبدلت ثيابها الرياضية الـ"أديداس"، بفستانٍ طفوليّ أبيض، يشبه ما تلبسه البنات الصغيرات في مراسم "سر التثبيت الأول"[1]. هل غيّر ذلك شيئـًا من حقيقتها؟ ستظل عاهرةً مدى الحياة. الغرور والنرجسية يدفعان الناس للظهور بمظهر لا يتوافق مع حقيقتهم. أنا أكثر من يعرف ذلك، فقد وقف عدد كبير من أمثالهم أمام عدستي.

بسبب حالات وفاة المهاجرين التي حدثت مؤخرًا في آيرلندا وإيطاليا، فقد أبدت جميع الصحف اهتمامًا مفاجئـًا بطالبي اللجوء، ويبدو أن هذا التافه هو من وقع الاختيار عليه لالتقاط بعض الصور التي لا تحمل أي رؤية، من أي نوع، لنزلاء المركز. في خياله، يتصور هذا الشخص العدد الهائل من الجوائز التي سيحصل عليها عقب نشر صوره.. ويحلم بأن تقوم منظمة العفو الدولية بطبع بعضها على أدواتها المكتبية.

---

(1) يُسمى أيضًا "سر المسحة المقدسة"، وهو أحد طقوس الديانة المسيحية يتم فيه مسح الجسم بزيت "الميرون". يعتبر طقسًا تابعًا للتعميد، فيجدد العبد عهده مع الرب ويصير عضوًا في الكنيسة.

سيصبح أحد المشاهير العظماء في مجاله. يتخيَّل نفسه في مكان استوائي، وهو يسأل البابا بكل حميمية:

ـ "يوحنا".. هل يمكنك يا صديقي أن تنحني لتقبّـل الأرض ثانية؟ لا أظن أنني التقطت الصورة منذ لحظات.

وينحني البابا بالفعل، ليطبع قبلة على الأسفلت.. مرة تلو الأخرى.

هذا ما يفكر به هذا المصوّر الآن؛ أما أنا فأفكر بأن عليه ألا يزعجني وإلا قمتُ بكسر رقبته الملعونة.

يتحوّل الجرّاحون إلى أطفال خائفين، حين يمرضون ويحتاجون إلى عملية جراحية؛ أمَّا المصوّرون فإنهم يفضّلون الموت على أن يوجّه أحد عدسته نحوهم.

يسألني السيد "نيكون"، بالإنجليزية، عن اسمي. يبدو كمن يقول:

ـ فلنتعامل بقدر من اللطف والودّ. سألتقط لك بعض الصور. ستشعر بوخزة خفيفة.. ذلك كل شيء. لا ألم على الإطلاق.

أجيبه عن سؤاله:

ـ "بايبول ماسلي".. ولكن يمكنك مناداتي كيفما شئت.. "بوبال ميوزلي".. أي شيء! ويمكنني التحدّث بالهولندية، على فكرة.

اسمي لا يعني له شيئًا على الإطلاق. أغلب الظن أنه لا يعرف من المصورين سوى نفسه!

ـ آه.. أنت تتحدث الهولندية على نحو جيّد، كما يبدو.

يا له من كائن لزج!

يضيف:

ـ حاول فقط أن تنسى أنني موجود. تصرّف على طبيعتك.

"أنسى أنه موجود"؟! حقـًا؟!! إنه أتفه من أن أعتبره موجودًا أصلًا!

يضبط الإضاءة ويجهّز الكاميرا، ويثرثر قليلًا ليجعلني أشعر بالارتياح:

ـ ما بلدك يا سيد.. آه.. "ماسلي"؟

أجيبه هازئًا:

ـ "كاربت لاند".

دون اهتمام بإجابتي عديمة المعنى، يقول لي:

ـ يمكنك أن تجلس بجوار النافذة، وتنظر عبرها. سيكون ذلك جميلًا.

"جميل"؟! فعلًا؟! أين الجمال في أن تنظر من خلال شبّاك؟ وما الذي سأنظر إليه أساسًا؟ حبال الغسيل؟ ملعب الـ"بيتاك" بكراته الحديدية والخشبية، الذي لا يلعب فيه أحد بسبب البرودة الشديدة للجوّ؟ هل أتأمل الأسوار الشائكة للمركز؟ ثم إن هناك ملايين الصور لأشخاص ينظرون خارج النوافذ، لعلّ أشهرها صورة الفنان الأمريكي "سامي ديفيس جونيور" التي التقطها "بيرت جلين"، وحققت نجاحًا باهرًا وقتها، ولكن كيف سيتأتّى لهذا الأبله أن يعرف شيئًا عنها؟

ـ هل يمكنك أن تسند رأسك إلى يدك اليمنى يا سيدي؟

أظلُّ ثابتًا دون حراك.

ـ يدك اليمنى.. سيدي.. هل تفهم ما أقول؟

ـ نعم.. نعم.. اليد اليمنى.. التي يقع إبهامها على اليسار! التقط صورتك وابتعد عني..

ـ أنا أدرك أنك منزعج. لقد أوشكنا على الانتهاء.

لديه إصرار رهيب! يجب أن أقرّ بذلك.. أمدّ بصري عبر النافذة، لا لأطيعه، ولكن لأتخلص من إزعاجه بأسرع ما يمكن.

ينتظر طويلًا.. وينتظر.. دون التقاط الصورة. يراقبني، ويتفحصني. أتساءل في نفسي إن كان ينوي تصويري أم لا.. حين تحطّ ذبابة على رأسي.. يسارع بالضغط على زر الكاميرا، ثم يشكرني ويغادر غرفتي.

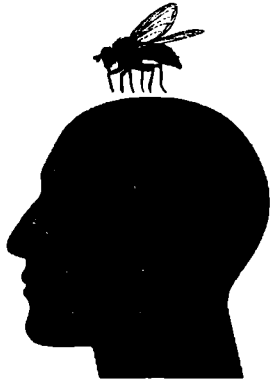

انضم إلى مكتبة .. اضغط اللينك t.me/t_pdf

# الخاتمة

مكتبة
t.me/t_pdf

لم يكن هذا الكتاب ليظهر، لولا أن مجلة "ديوس إكس ماكينا" كلّفتني بكتابة مقال عن طالبي اللجوء؛ وكي أتمكّن من فهم أبعاد الموضوع بشكل جيد، أمضيتُ عدّة أيام في مركز لاستقبال اللاجئين في بلدية "آريندونك" البلجيكية. أفادني مكوثي في المركز في بدء هذا العمل.

كان ذلك في ديسمبر 2001، الذي عانينا فيه من جوّ شديد البرودة. الهجوم على برجي التجارة العالمي، كان لا يزال يتصدر الصفحات الأولى

من الجرائد، التي ركّزت موضوعاتها على الخوف من انهيار النظام العالمي. خشي المسلمون أن يتم توجيه اللوم لهم بسبب هذا الحادث. خلال وجودي في المركز، مات حوالي عشرين شخصًا داخل حاويات سفن، ولحق بهم عدد آخر.

حين انتهيت من تدوين المسودة الأولى للكتاب، بعد سبعة أشهر، لم يكن أي من النزلاء الذين بنيت عليهم شخصياتي قد نجح في الحصول على حق اللجوء. عاد بعضهم إلى بلدانهم، طواعيةً؛ فيما غادر بعضهم الآخر بالإكراه، كما فرّ عدد منهم من المركز، لكن النسبة الأكبر واصلت العَيش بداخله على أمل الحصول على إقامة دائمة في البلد.

لمنع أي سوء فهم، يجب أن أذكر بأنني قمت بتأليف نحو نصف الحكايات الواردة في العمل، ولكنها جميعًا صادقة تمامًا وتخلو من أي كذبة.

وأخيرًا، أودّ أن أعبّر عن امتناني لجميع موظفي مركز اللاجئين في "آريندونك"، وأن أسجّل إعجابي بهم. كما أشكر "مؤسسة الأدب الفنلندي" لتقديمها الدعم اللازم لهذا المشروع.

أهدي هذا الكتاب إلى "مقصود"، الذي تمّت إعادته إلى بلاده، وإلى مئات الآلاف ممن يعانون من ظروف مشابهة.

# الفهرس:


| | |
|---|---|
| الجزء الأول: "بايبول ماسلي" مُصوِّر | 5 |
| المكان: مدينة "هرجيسيا" الصومال 1984 | 5 |
| الذباب | 15 |
| مدينة كرابوبيا عام 1974 | 17 |
| الجزء الثاني: "بايبول ماسلي" لاجئًا | 25 |
| بين قسوة بريطانيا وبردها القارس | 25 |
| لا أحد يجيد تصفيف الشعر مثل رامونا | 35 |
| رحيل "تشيريبي" | 41 |
| قرار التوطين رقم 174BLZ18 | 49 |
| روكي: الجزء الأول | 53 |
| السعادة لا تمحو الأحزان العميقة | 61 |
| شطرنج المحترفين | 69 |
| روكي: الجزء الثاني | 77 |
| شهر مثير للسخط | 85 |

للساهرين أحاديث لا يتخيلها النائمون 93

أطفالنا الحزانى هم المستقبل 103

إذا حدث ورأيت صليبًا معقوفًا يشير إلى الاتجاه الخاطئ، فاعلم أن من رسمه هو شخص فاشي 111

اللجوء إلى بلد "إيدي ميركس" 121

انتقال آهة 129

هل يوجد ما هو أفضل من زواج غير سعيد 137

الإبحار ضرورة أهم من الحياة. بلوتارك 145

ما بعد الكوميديا 155

روكي: الجزء الثالث 167

قرار التجنيس رقم 4545KFDF456 177

الأجراس تدق 181

نيجاتيف 185

الخاتمة 193

مكتبة
t.me/t_pdf

كنت أتمنى، في كل مرة يصل فيها لاجئ جديد للمركز، أن تكون معه آلة موسيقية من أي نوع؛ هارمونيكا ربما، أو حتى صفّارة معدنية! بل إن أمنياتي تتضاءل أحيانًا لدرجة أن أحلم بالعثور على وتر مقطوع من جيتار لا أكثر. كنت في حاجة ماسّة إلى الموسيقى. أنغام حقيقية.. حية.. وليست تلك المنبعثة من أشرطة أجهزة التسجيل، بصوتها القديم.. المتعَب.. المشوّه. لكن الشخص المضطر إلى تسلق قمة جبل، والعبور منها إلى القمة التي تليها، متخطيًا شتى أنواع المتاعب والمخاطر، ليتمكن في النهاية من حشر جسمه بين صناديق الطماطم، أو الاستلقاء بين أجساد خنازير، في سيارة نقل تعبر بها إلى مسلخ دولة أخرى.. ويغطي نفسه بروث تلك الحيوانات وفضلاتها، حتى لا يفطن حرس الحدود إلى وجوده.. لن يفكر أبدًا في أخذ آلته الموسيقية معه، سيتركها في وطنه، ويكتفي بحمل نسخة من الإنجيل أو القرآن.. علها تمدّ قلبه وروحه بشيء من السكينة؛ وقد يصطحب معه صورة للأشخاص الذين فارقهم.. مع أن الذكريات التي تجلبها معك إلى هنا، تعدّ نوعًا من الرفاهية.

## ديميتري فيرهولست

ديميتري فيرهولست (ولد في ٢ أكتوبر ١٩٧٢) في "ألست" ببلجيكا وهو كاتب وشاعر بلجيكي. له الكثير من الأعمال الشهيرة من ضمنها: "بروبليمسكي هوتيل" و"البائسون".

نشأ وترعرع ككاتب، في عام ١٩٩٩ نشرت أول أعماله، وهي مجموعة قصصية عن شبابه، بسببها تم ترشيحه للجائزة الأدبية لمجلس اللاجئين النرويجي. تشير رواياته إلى تغيير في شكل الرواية وتميز بالمشاركة الاجتماعية والسياسية الكبيرة. اشتهر عام ١٩٩٩ بمجموعته القصصية الأولى "الغرفة المجاورة". والتي أتبعها بـ"لا شيء، لا أحد، وهدوء معقول" عام ٢٠٠١، ثم روايته "ملل حارس المرمى" عام ٢٠٠٢. أمّا رواياته "بروبليمسكي هوتيل" (٢٠٠٣)، و"نهاية الأشياء" (٢٠٠٦) نجحتا نجاحًا كبيرًا للغاية وتُرجِمَتَا إلى العديد من اللغات. في عام ٢٠٠٨، تم تحويل "نهاية الأشياء" إلى فيلم، والذي بدوره حصل على شهرة واسعة في كثير من مهرجانات السينما وفي دول مختلفة. كتب كذلك "مدام فيرونا تهبط التل" عام ٢٠٠٦، و"أيام لعينة في أفق لعين" عام ٢٠٠٨، و"حب أمي الأخير" عام ٢٠١٠، ومجموعة شعرية تحت عنوان "الحب، إلا إذا تم تغيير مُسَمَّاه" عام ٢٠٠١. حصل على جائزة "دي إن كتاب"، الجائزة الهولندية الأدبية للشباب عن رواية "البائسون" ٢٠٠٨، و"جائزة جولدن أوُل ريدرز ٢٠٠٧".

t.me/t_pdf

العربي للنشر والتوزيع
60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg